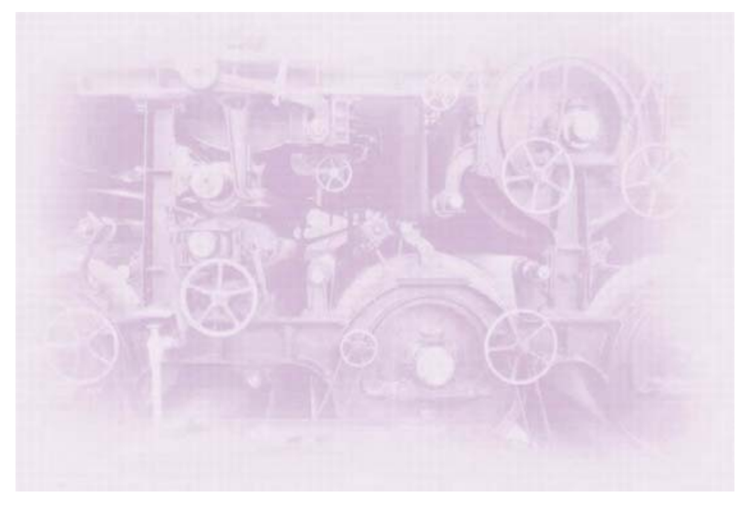


www.kotobarabia.com
تعميق حاسة العمل
جمال البنا
www.kotobarabia.com

جمال البنا



تعميــق حاســة العمــل
في المجتمع الإسلامي

إهداء

إلى العزيزة السيدة منى عبد ا

الشمعة التى لا تطفئ نورها الرياح...

والتى أعجبـت بهـذا الكتـاب، وأشـرفت علـى كتابتـه بالكمبيوتر، وشجعتنى لإصداره..

فإذا أهديت إليها هذه الطبعة فهذا حقها..

جمال البنا

تعميق حاسة العمل
فى المجتمع الإسلامى

يثير هذا الكتاب قضية هامة لم تظفر بما تستحقه من العناية هى "تعميق حاسة العمل فى المجتمع الإسلامى" وهو يبدأ بفصل عن "**مكانة العمل فى الإسلام**" ويجملها فى أنها "مصداق الإيمان ومعيار الثواب والعقاب" لأن من السهل على كل واحد أن يدعى الإيمان، ولكن ما يصدق ذلك هو العمل. ولأن الناس يثابون أو يعاقبون يوم القيامة على ما كانوا يعملون. وفى الفصل الثانى يعرض "**أخلاقيات العمل**" ويرى الكتاب أنها القربى إلى ا والمبدئية الإسلامية، فالعمل فى حقيقته عبادة أو قل أفضل عبادة. وفى الوقت نفسه تحكمه القيم الإسلامية وينتقل الكتاب إلى نواح عملية فيشير إلى "**علاقات العمل**" وكيف أنها فى الإسلام تقوم على تلاقى الحقوق بالواجبات بحيث يحل هذه المشكلة المستعصية لأن حقوق العمال هى واجبات أصحاب الأعمال. وحقوق أصحاب الأعمال وواجبات العمال وفى الفصل الرابع يعالج الكتاب "مضمون العمل" فيتحدث عن أصل القيمة وشمول الأداء بحيث يغطى كل مجالات "العمل الصالح".

وفى الفصل الخامس يعالج الكتاب "**مقومات العمـل**" إلا وهى النية والصلاحية ويحمل الفصل السادس عنوان "**حتى لا نفقد الابتسامة**" وهو يجرى مقارنة بين أسلوب أداء العمـل فى المناشط فى أوروبا حيث يقترن العمل بالابتسامة وأدائـه فى بعض المناشط المصرية.. التى يقترن العمل فيها بالتجهم والفرق الشاسع بينهم..

ويختم الكتاب بخاتمة هامة هى أن "**العمل هو الوسـيلة المثلى اليوم للجهاد فى سبيل ا**" فيتحـدث عـن معركـة التنمية.. وأن الجهاد الحق هو الجهاد فى هذه المعركة..

دار الفكر الإسلامى

مقدّمة الطبعة الأولى

قد لا نستطيع أن نصل إلى رشـاقة التعبيـر وبراعـة التصوير الذي وصل إليه شاعرنا الكبير "شوقي" عندما قال :

انظر الكون وقل في وصفه

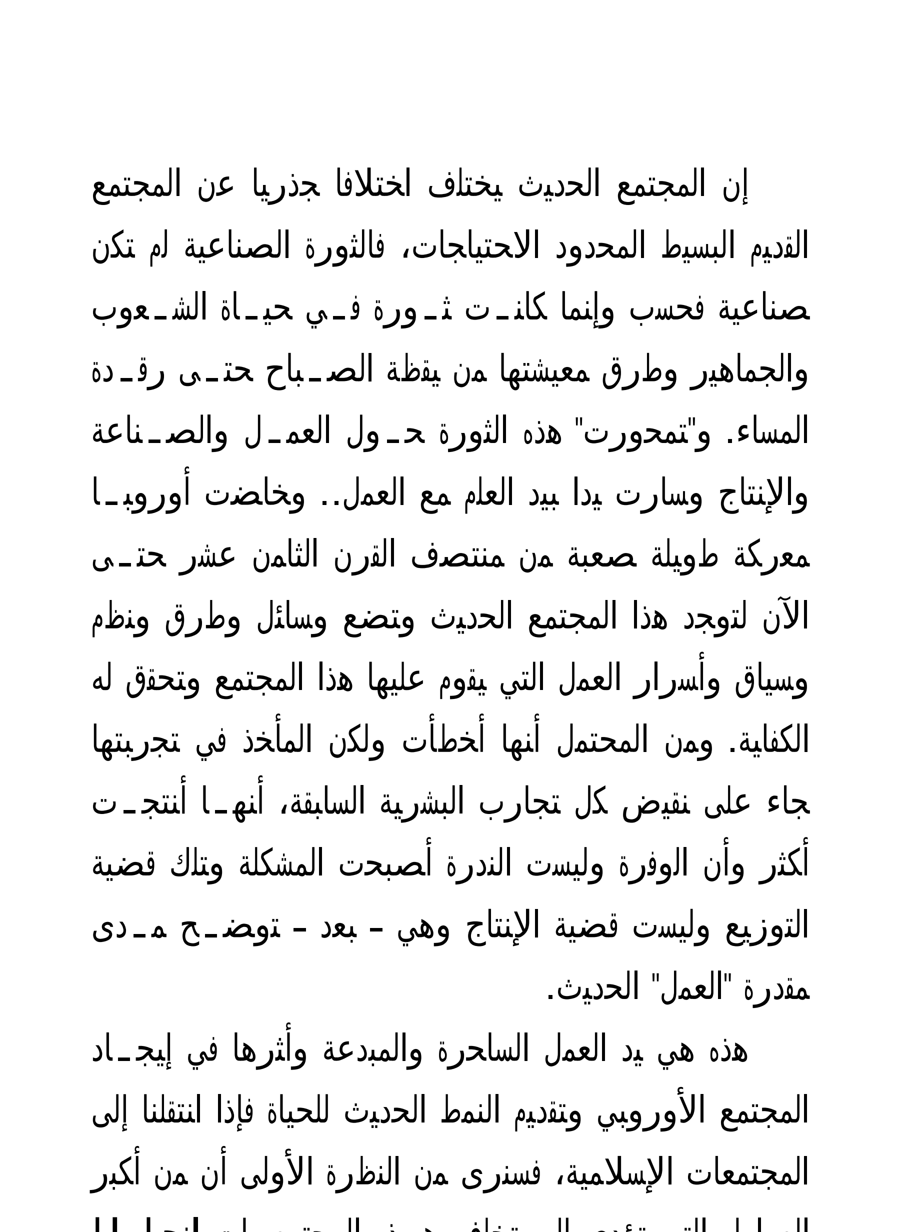
كل هذا أصله من أبوين

فقـ ـدا الجنة في ايجـادنا

ونعمنا منهما في جـنتين

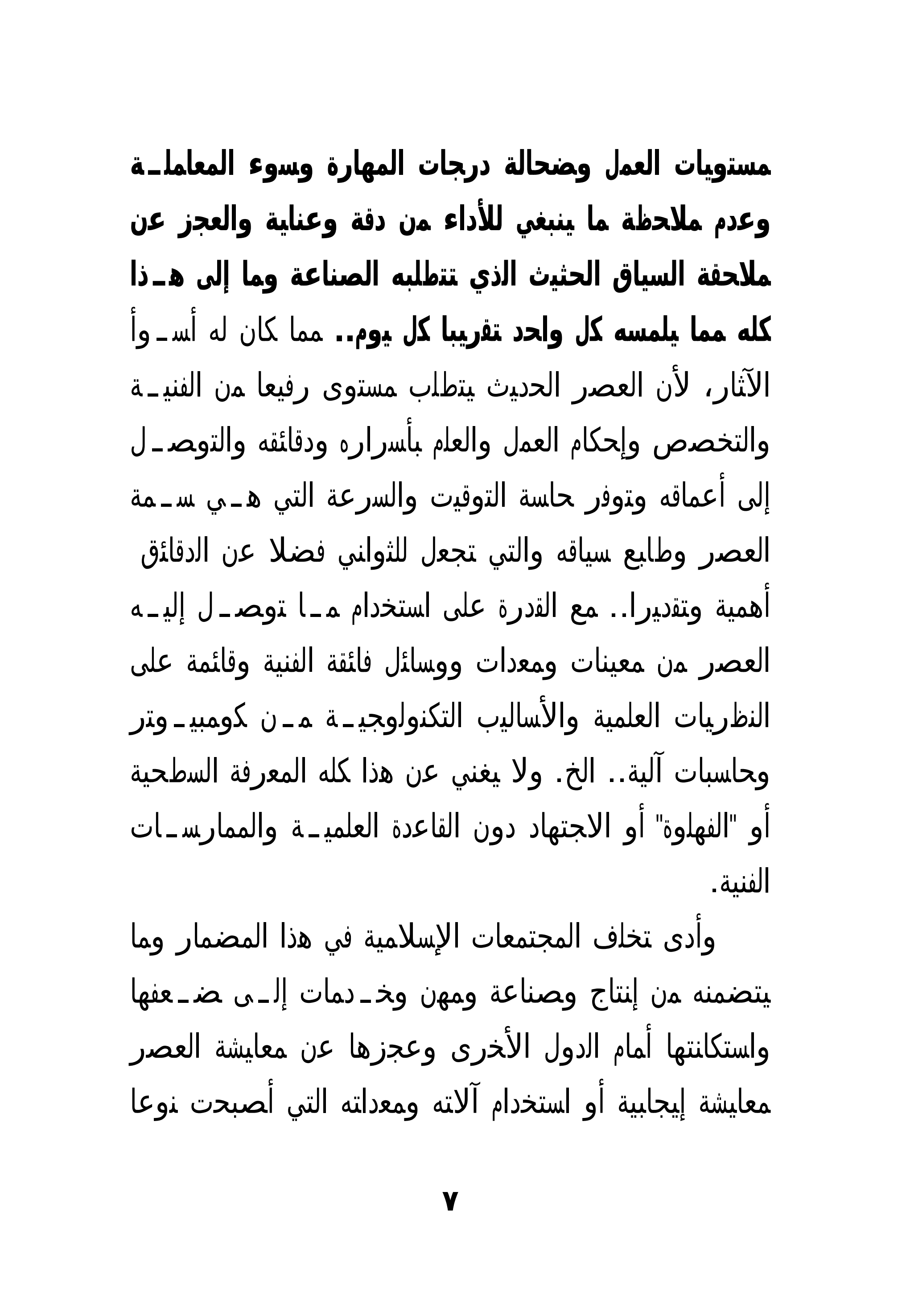
ومع هذا فلن نخالف جادة الصواب إذا نظرنا إلى هـذا الكون وما يحفل به من بيوت ومصـانع وطـرق وحـدائق ومستشفيات ومساجد ومكتبات ومعاهد وإلى الأنـوار التـي تشق الظلمات.. **والسفن الماخرات البحر كالأعلام والقطارات والطائرات وقلنا "كل هذا أصله من العمل"..**

نعم إن **العمل**، والعمل الدائب المستمر هو الـذي أقـام البيوت وشق الطرق وأحال الصحارى القاحلة إلى مدن آهلة ووضع وسائل الانتقال والاتصال من العجلة البدائيـة إلـى الطائرات والكومبيوتر والتليفزيون.. وهو الذي يوفر يومـا بعد يوم للملايين من الناس مأكلهم ومشربهم وما يحتـاجون إليه في حلهم وترحالهم عملهم ولهوهم..



إن المجتمع الحديث يختلف اختلافا جذريا عن المجتمع القديم البسيط المحدود الاحتياجات، فالثورة الصناعية لم تكن صناعية فحسب وإنما كانـت ثـورة فـي حيـاة الشـعوب والجماهير وطرق معيشتها من يقظة الصـباح حتـى رقـدة المساء. و"تمحورت" هذه الثورة حـول العمـل والصـناعة والإنتاج وسارت يدا بيد العلم مع العمل.. وخاضت أوروبـا معركة طويلة صعبة من منتصف القرن الثامن عشر حتـى الآن لتوجد هذا المجتمع الحديث وتضع وسائل وطرق ونظم وسياق وأسرار العمل التي يقوم عليها هذا المجتمع وتحقق له الكفاية. ومن المحتمل أنها أخطأت ولكن المأخذ في تجربتها جاء على نقيض كل تجارب البشرية السابقة، أنهـا أنتجـت أكثر وأن الوفرة وليست الندرة أصبحت المشكلة وتلك قضية التوزيع وليست قضية الإنتاج وهي - بعد - توضـح مـدى مقدرة "العمل" الحديث.

هذه هي يد العمل الساحرة والمبدعة وأثرها في إيجـاد المجتمع الأوروبي وتقديم النمط الحديث للحياة فإذا انتقلنا إلى المجتمعات الإسلامية، فسنرى من النظرة الأولى أن من أكبر العوامل التي تؤدي إلى تخلف هـذه المجتمعـات **انحطـاط**



مستويات العمل وضحالة درجات المهارة وسوء المعاملـة وعدم ملاحظة ما ينبغي للأداء من دقة وعناية والعجز عن ملاحقة السياق الحثيث الذي تتطلبه الصناعة وما إلى هـذا كله مما يلمسه كل واحد تقريبا كل يوم.. مما كان له أسـوأ الآثار، لأن العصر الحديث يتطلب مستوى رفيعا من الفنيـة والتخصص وإحكام العمل والعلم بأسراره ودقائقه والتوصـل إلى أعماقه وتوفر حاسة التوقيت والسرعة التي هـي سـمة العصر وطابع سياقه والتي تجعل للثواني فضلا عن الدقائق أهمية وتقديرا.. مع القدرة على استخدام مـا توصـل إليـه العصر من معينات ومعدات ووسائل فائقة الفنية وقائمة على النظريات العلمية والأساليب التكنولوجيـة مـن كومبيـوتر وحاسبات آلية.. الخ. ولا يغني عن هذا كله المعرفة السطحية أو "الفهلوة" أو الاجتهاد دون القاعدة العلميـة والممارسـات الفنية.

وأدى تخلف المجتمعات الإسلامية في هذا المضمار وما يتضمنه من إنتاج وصناعة ومهن وخـدمات إلـى ضـعفها واستكانتها أمام الدول الأخرى وعجزها عن معايشة العصر معايشة إيجابية أو استخدام آلاته ومعداته التي أصبحت نوعا

من لغة العصر فكأنها أصبحت عجماء وسط المتكلمين، عالة بين المستقلين، ورضيت أن تكون من الخوالف ولجأت الدول الغنية نسبيا منها إلى استيراد كل شئ من الدول الأوروبيـة وأذعنت راغمة لدفع الأثمان الباهظة التي تطلبها والنـزول على شروطها المجحفة التي تذل كرامتها وتستنزف ثروتهـا ثم لا تأمن بعد هذا كله على استقلالها أو سلامتها.

حتى الزراعة التي هي الحرفة التقليدية في المجتمعـات الإسلامية والتي كانت تكفل لأهلها الغذاء وتصدير جزء كبير من الحاصلات زحف عليها التخلف ولم تسـتطع أن تسـاير التقدم الذي جعل من الزراعة (كما جعل من كل شئ تقريبا) علما وصناعة ووصل التـدهور والعـوز والتخلـف بهـذه المجتمعات أن أصبحت تستورد رغيف عيشها ومادة قوتهـا من الدول المتقدمة وأصبح القمح سلاحا تشهره أمريكا فـي وجوه هذه الدول.

ولهذا التخلف في مجال العمل والصـناعة والمهـارات أسباب عديدة اجتماعية واقتصادية وسياسـية. ولكـن مـن الأسباب التي لم تظفر بالاهتمام أو تتوجه إليها عناية الباحثين أن العمل قد حرم دفع ومساندة القِيم الإسلامية وتجـرد مـن

طابعه ودوره الإسلامي ففقد بهذا أكبر وازع يصلح الخلـل ويستدرك القصور ويكون قوة دافعة نحو استكمال ما ينقصنا واستدراك ما يفوتنا.

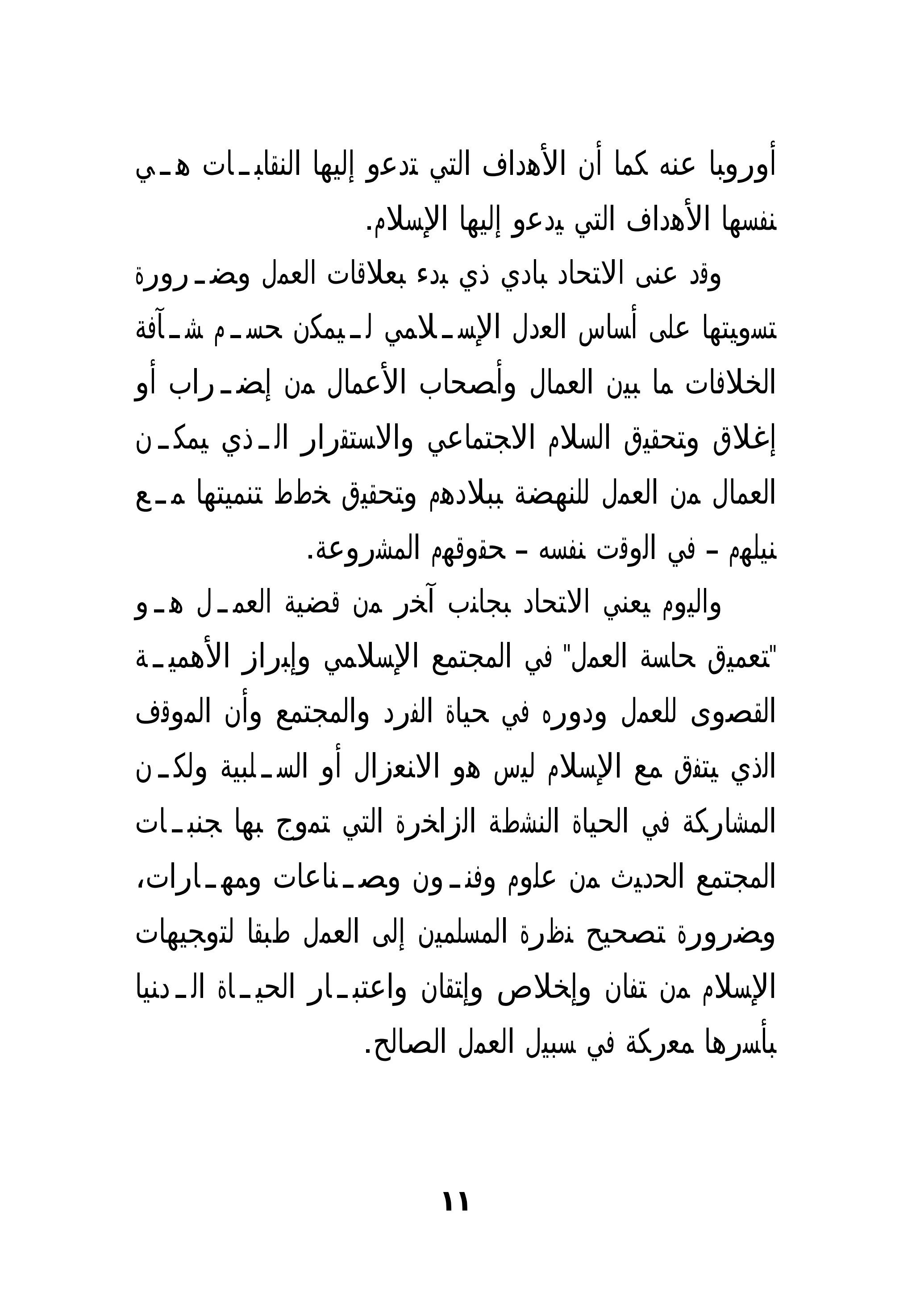
ولعل من أدلة هذا الإغفال أننا لا نـرى اهتمامـا مـن الهيئات الإسلامية ومن الدعاة الإسلاميين بهذا المجـال ولا نرى في المكتبة الإسلامية ما يتناسب مع أهميته من الكتـب والرسائل ولا نجد في الهيئات الإسلامية عناية به. وقد كـاد الإسلام أن يصبح مجموعة من شعائر العبـادة وأن يقتصـر على أداء الطقوس والفرائض الدينية من صلاة أو صـيام أو حج. وحول هذه الموضوعات وحـدها تـدور الاهتمامـات وتتركز المؤلفات واصبح الناس لا يعلمون من وسيلة للتقرب إلى ا إلا العبادات من صلاة أو صيام أو حج ولا يخطر في بالهم أن إتقان العمل وإحسان المعاملـة وإدراك المهـارات الحديثة في الصناعة التي تحقق العزة والكرامـة للمسـلمين تماثل الشعائر وتعد في الإسلام شقائقها ويثيب ا عليها مثل ما يثيب على الصلاة والصيام.

وكان لهذا الفهم الضيق آثار سيئة إذ حرم العمل من دفع أعظم المقومات وأعمقها تغلغلا فـي شخصـية المسـلمين

وأكثرها تأثيرا عليها ألا وهو الإسلام وقد أثار انتبـاهي مـا قرأته في يوم ما في جريدة الأهرام[1] من أن أحد النـوادي قرر صنع عدد من اليافطات الصغيرة تحمل الأثـر (إن ا يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) واتفق مع أحد الصـناع على ذلك ولكن الصانع أخذ يماطل ويسوف يوما بعـد يـوم حتى قال مندوب النادي إن هذه اليافطة تحمل حديثا شـريفا يحث على الإتقان فتنبه الصانع الذي لم يكن قد ألقى بالا إلى ما أريد كتابته على اليافطات ووعد مندوب النـادي بانتهـاء العمل في اليوم التالي ولما مر مندوب النادي وجد اليافطات جميعا على أحسن حال وأفضل مما طلبه واعتـذر الصـانع بحرارة عن تقصيره لأنه لم يلحظ الحديث وقال "أنا بصراحة لما قريت الحديث الشريف ده تأثرت جدا".

وقد كان قيام "الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل" أول خطوة عملية وتنظيمية لسد تلك الفجوة التي فصلت ما بين الإسـلام والعمل وأبرز الاتحاد – في عدد من رسائله – العلاقة الوثيقة التي تربط عالم العمل بالإسلام بل أثبت أن "النقابات" ليسـت طارئة على المجتمع الإسلامي فقد كانت موجودة بل ونقلتها

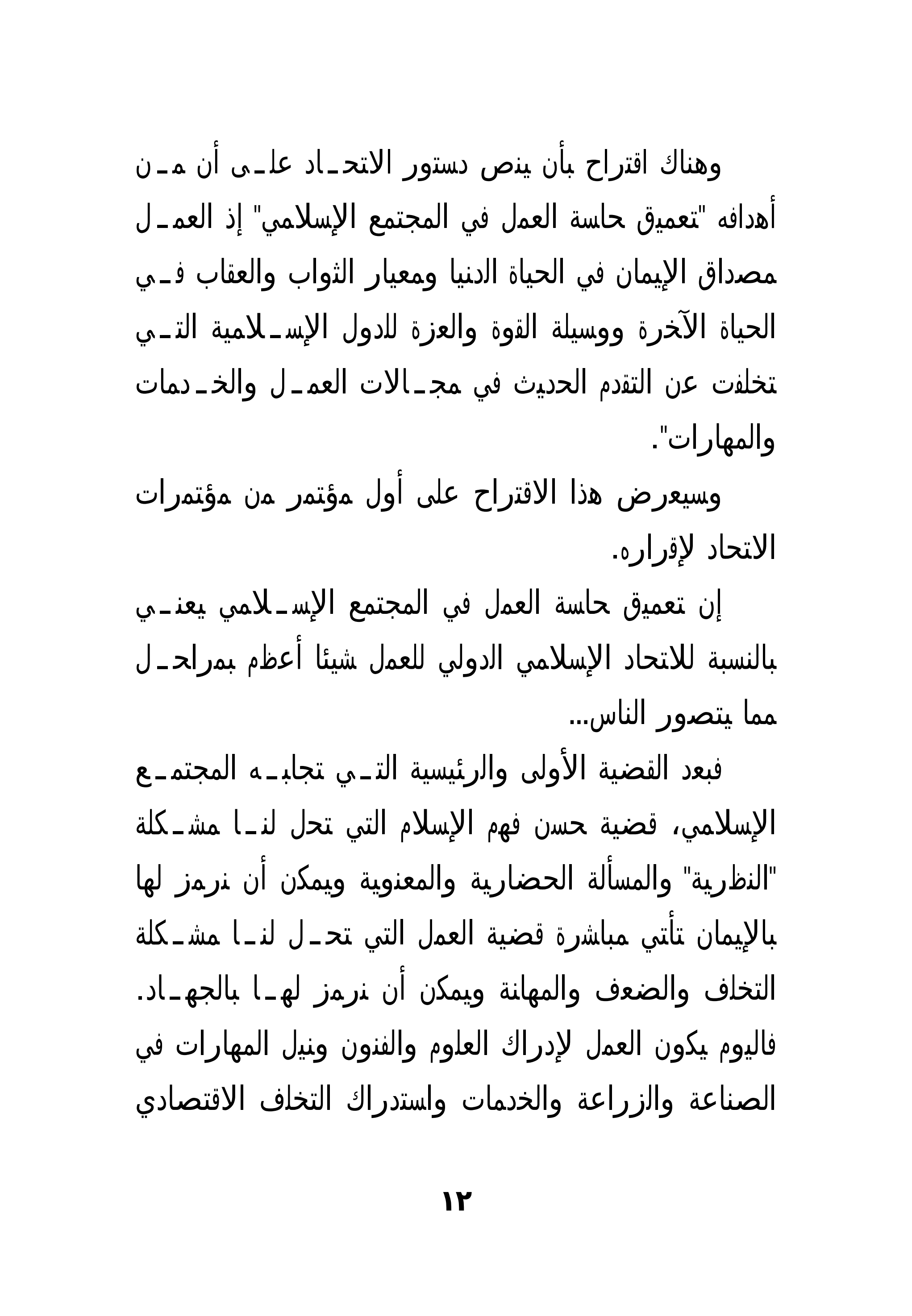
(١) الأهرام العدد الصادر فـى ١٩٨٠/١٢/٣٠ ص٧ "أن يتقنـه.." للأسـتاذ صلاح منتصر.



أوروبا عنه كما أن الأهداف التي تدعو إليها النقابات هي نفسها الأهداف التي يدعو إليها الإسلام.

وقد عنى الاتحاد بادي ذي بدء بعلاقات العمل وضرورة تسويتها على أساس العدل الإسلامي ليمكن حسم شأفة الخلافات ما بين العمال وأصحاب الأعمال من إضراب أو إغلاق وتحقيق السلام الاجتماعي والاستقرار الذي يمكن العمال من العمل للنهضة ببلادهم وتحقيق خطط تنميتها مع نيلهم – في الوقت نفسه – حقوقهم المشروعة.

واليوم يعني الاتحاد بجانب آخر من قضية العمل هو "تعميق حاسة العمل" في المجتمع الإسلامي وإبراز الأهمية القصوى للعمل ودوره في حياة الفرد والمجتمع وأن الموقف الذي يتفق مع الإسلام ليس هو الانعزال أو السلبية ولكن المشاركة في الحياة النشطة الزاخرة التي تموج بها جنبات المجتمع الحديث من علوم وفنون وصناعات ومهارات، وضرورة تصحيح نظرة المسلمين إلى العمل طبقا لتوجيهات الإسلام من تفان وإخلاص وإتقان واعتبار الحياة الدنيا بأسرها معركة في سبيل العمل الصالح.



وهناك اقتراح بأن ينص دستور الاتحاد على أن من أهدافه "تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي" إذ العمل مصداق الإيمان في الحياة الدنيا ومعيار الثواب والعقاب في الحياة الآخرة ووسيلة القوة والعزة للدول الإسلامية التي تخلفت عن التقدم الحديث في مجالات العمل والخدمات والمهارات".

وسيعرض هذا الاقتراح على أول مؤتمر من مؤتمرات الاتحاد لإقراره.

إن تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي يعني بالنسبة للاتحاد الإسلامي الدولي للعمل شيئا أعظم بمراحل مما يتصور الناس...

فبعد القضية الأولى والرئيسية التي تجابه المجتمع الإسلامي، قضية حسن فهم الإسلام التي تحل لنا مشكلة "النظرية" والمسألة الحضارية والمعنوية ويمكن أن نرمز لها بالإيمان تأتي مباشرة قضية العمل التي تحل لنا مشكلة التخلف والضعف والمهانة ويمكن أن نرمز لها بالجهاد. فاليوم يكون العمل لإدراك العلوم والفنون ونيل المهارات في الصناعة والزراعة والخدمات واستدراك التخلف الاقتصادي

والاجتماعي ووضع هذا كله في خدمة الإسـلام والمسـلمين ولإعلاء كلمة ا هو الجهاد حقا ويصبح أقـرب التطبيقـات للمعيار الذي وضعه الرسول ﷺ عندما سئل عن الجهاد فـي سبيل ا فقال "من جاهد لتكون كلمة ا هي العليا فهو فـي سبيل ا ". كما أنه التصديق الواقعي للجمع القرآني المتوالي بين الَذِين آمنُوا وعمِلُوا الصالِحاتِ .

جمال البنا

القاهرة في

شعبان ١٤٠٥

مايـو ١٩٨٥

مقدمة الطبعة الثانية

كُتب "تعميق حاسة العمل فى المجتمع الإسلامى" عـام ١٩٨٥ وصدر باسم الاتحاد الإسلامى الدولى للعمـل الـذى كان قد عقد مؤتمره التأسيسى فى جنيف عـام ١٩٨١. مـن أجل هذا فإن القارئ يجد إشارات إلى عالم الثمانينات الذى قد لا يلم به من لم يعايشه، وقد أوردنـا فـى بعـض فصـوله تسجيلات من كتابات نشرت وقتئذ وطواها النسـيان، وهـذه الإشارات والتسجيلات تعيد إلى الحيـاة مفـاهيم وإحـداث وتعرف أبناء القرن الواحد والعشرين ببعض ما كان يحـدث منذ عشرين عاما. كما أن صدوره عن الاتحـاد الإسـلامى الدولى للعمل يعرف القارئ بهيئة كان ينتظر أن تكون مـن أعظم الهيئات تأثيراً فى المجتمع العربى والإسلامى لولاً أنها جاءت قبل وقتها إذ تضافرت كل القوى لمعارضتها. وكانت المنظمات النقابية التى انضمت إليه من منظمات المعارضـة المفلسة، الملاحقة، فلم تستطيع أن تساعد الاتحاد الناشـئ إذ كانت هى نفسها أحوج إلى المساعدة، أما النقابات الأخـرى فقد ارتبطت بالنظم الحاكمة وسارت فى أذيالها، وبالطبع فإنها كانت تقاومه.. ومن هنا فلم يحقق الاتحاد ما عقد عليه مـن

الآمال. وإن كان قد دفعنا إلى المعالجة النظريـة لعلاقـات العمل من وجهة نظر إسلامية. وقدم الاتحاد تنظيراً جديـداً لهذه العلاقات يقف ما بين الرأسـمالية المقاومـة للنقابـات والاشتراكية المستلحقه للنقابات. وكان هذا الكتـاب إحـدى ثمراته. ونأمل أن تأتى ساعة الاتحاد عندما تسنح الظـروف الملائمة، وعندئذ فسيكون له شأن عظيم..

وعندما صدر الكتاب عام ١٩٨٥ كان فى ١٤٤ صفحة من القطع الصغير وكان مطبوعاً على ورق "سـتانيه" ولـه غلاف متواضع. ومع هذا فقد أثار الإعجاب، حتـى نفـدت نسخه بعد مرور أكثر من عشرين عاماً وشغلنا عنه بكتابات ما يكاد ينتهى أحدها حتى يبدأ الثانى حتى وقعت عليه نظـر الأستاذة منى عبد ا ، وهى سيدة مارونية بالميلاد، مصـرية بالجنسية، صعيدية بالزواج. وكان من حسن الحظ أن تعرفت عليها أيام "الفتنة الطائفية" إذ نشرت بعـض المقـالات فـى جريدة "الشعب" الواسعة الانتشار لفتت انتباهها عندما كانـت بصدد كتابة بحث بالفرنسية عن هذا الموضوع فاتصلت بى، ثم تعارفنا فى أحد اجتماعات حزب العمل ومن هذه اللحظـة تعاونت معى السيدة منى قلبا وقالبا، وقامت بإعداد "كتـالوج"

القسم الإنجليزى بالمكتبة بدءاً من تصنيف الكتـب وكتابـة "البطاقة" على كعبها ثم كتابة الكتـالوج بالإنجليزيـة علـى الكومبيوتر. وكانت تأتى ثلاث مرات فى الأسبوع لإنجاز هذا العمل رغم مشاغلها الجمة..

كما أصدرت بالفرنسية كتابا عن جمال البنا وتطور حياتـه ونشاطه الثقافى، بالإضافة إلى تلخيص واف لكتاب "نحـو فقـه جديد" بأجزائه الثلاثة.

إنها وزوجها الدكتور محجـوب عمـر يمـثلان العطـاء الخالص.. العطاء بلا حدود...

أعجبت السيدة منى عبد ا بالكتاب، وأشرفت على كتابتـه على الكومبيوتر بنفسها، وشجعتنى على إصداره فى ثوب قشيب..

وهكذا صدرت هذه الطبعة باسم "دعوة الإحياء الإسـلامى" التى تنوب عن الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل فى حمـل رايتـه حتى تحين لحظته.

وا تعالى اسأل أن يفيد به، وأن يسد نقصاً فـى المكتبـة العربية والإسلامية...

وأن يوجه الأنظار لما يجب أن تكون عليه "حاسة العمل فى المجتمع الإسلامى"..

جمال البنا

الفصل الأول

مكانة العمل في الإسلام

"مصداق الإيمان ومعيار الثواب والعقاب"

توضح مراجعة القرآن الكريم أن "**العمل**" يظفر بمكانـة رفيعة وأهمية بارزة بين أسس وقيم ومبادئ الإسـلام. وإذا كانت هذه الحقيقة غير مشهورة أو شائعة بين الناس، فإن هذا هو ذنب الشراح والمفسرين الذين لم يتجاوبوا تماما مع لفتات القرآن، ومروا مرورا عابرا على آياته العديدة عن العمـل، وكأَينْ مِنْ آيةٍ فِي السماواتِ والأَرْضِ يمرون علَيها وهـمْ عنْها معْرِضون .

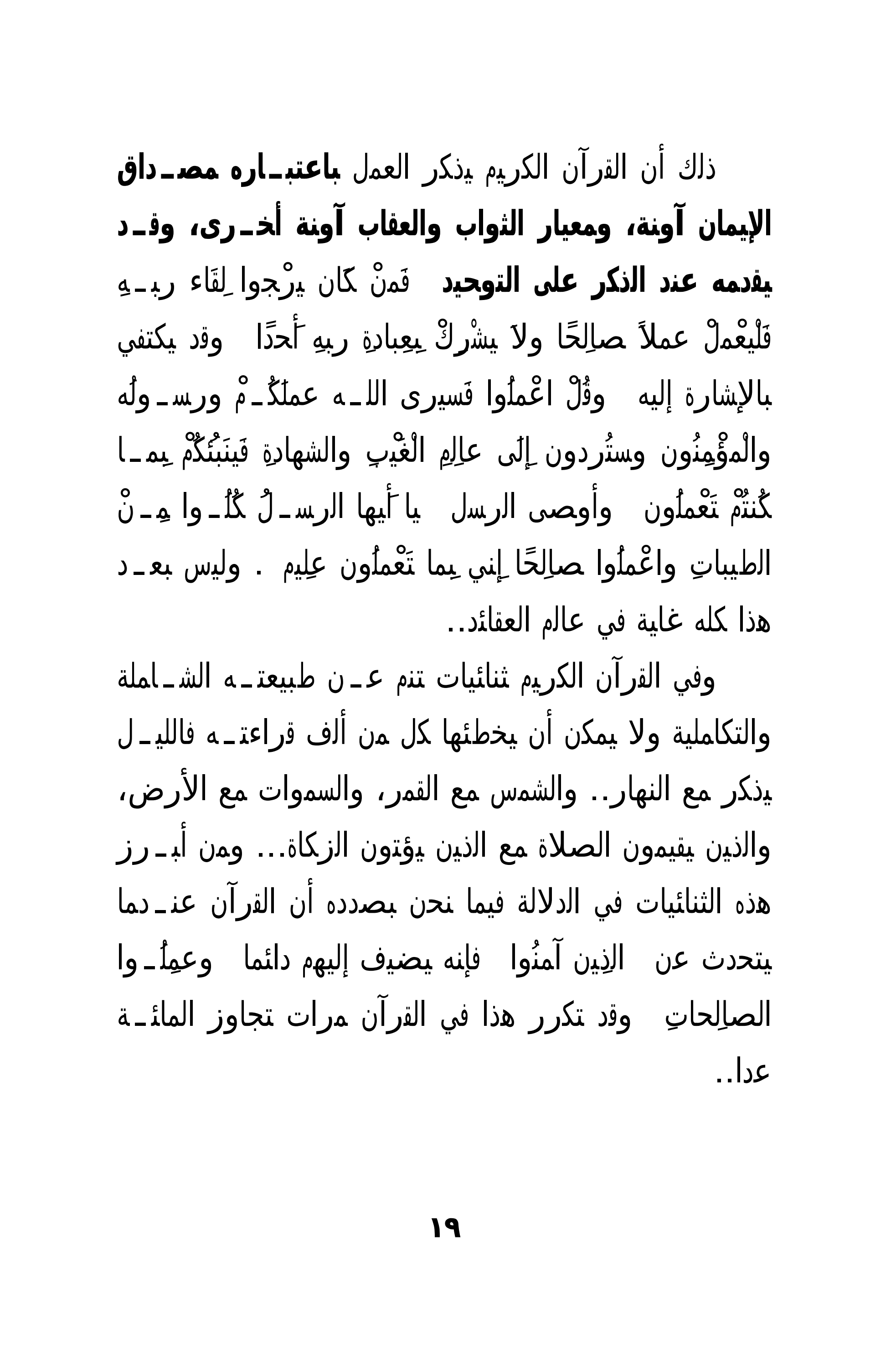
ومن دلائل الاهتمام بأمر أن يتكرر ذكره، وأن تتعـدد اشتقاقاته، وإذا رجعنا إلى القرآن فإننا نجد أن كلمة "**العمـل**" تعد من أكثر الكلمات ورودا، وأن القرآن قد ذكرها مـرارا وتكرارا، واستخدم مشتقاتها العديدة فيما وضعت له فأشـار إلى **عمل** (**١٩** مرة) و**عملوا** (**٧٣** مرة) و**تعملون** (**٨٣** مرة) **ويعملون** (**٥٦** مرة) **وأعمالهم** (**٢٧** مرة) **ويعمل** (**١٤** مرة) فضلا عن بقية المشتقات التي ذكرت مرات أقل مثل **عملـت**

– **أعمل – يعمل – عملا – عملكم – أعمالكم – أعمالنـا** – **عامل – عاملون – عاملين**.. ويصل مجموع هذه الإشارات إلى ما يقارب **٣٣٠** مرة.

وبالإضافة إلى هذه الإشـارات إلـى كلمـة "**العمـل**" ومشتقاتها على وجه التعيين فهناك إشارات أخرى عديدة إلى "مضمون" العمل مما يدخل في مترادفات كلمة العمـل مثـل "فعل" ويفعلون و"صنع" و"يصنعون" ومثل الأمر بالسير وأكل الطيبات واستباق الخيرات ألخ.. مما يكاد يضـاعف الـرقم السابق.

ولإيضاح دلالة هذا الرقم نقول إن الإشارات إلى الصلاة ومشتقاتها في القرآن الكريم تقارب المائـة وفـي أغلبيـة الإشارات ذكرت الصلاة مقرونة بالزكـاة ومعنـى هـذا أن إشارات القرآن الكريم إلى العمل هي أضعاف إشاراته إلـى الصلاة.

قد يقال إن العنصر الهام ليس هو مجرد الذكر وعـدد مرات الإشارة ولكن المضمون والمكانة وفحوى هذا الـذكر، وهنا أيضا لا يخذلنا القرآن..

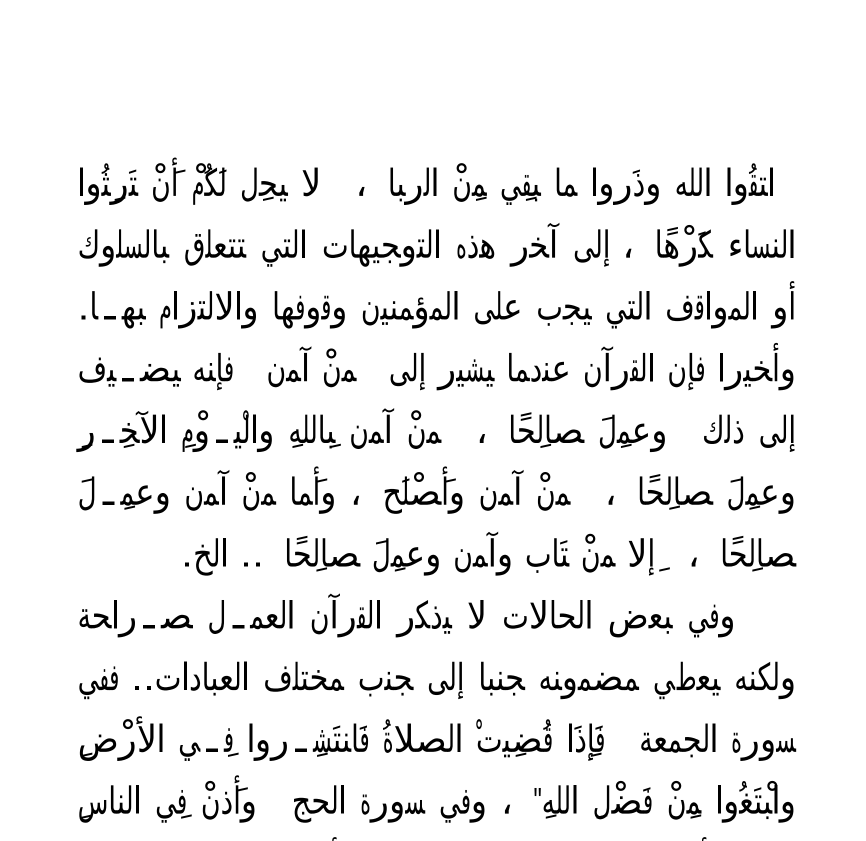


ذلك أن القرآن الكريم يذكر العمل **باعتباره مصداق الإيمان آونة، ومعيار الثواب والعقاب آونة أخرى، وقد يقدمه عند الذكر على التوحيد** فَمنْ كَان يرْجوا لِقَاء ربهِ فَلْيعْملْ عملاً صالِحًا ولاَ يشْركْ بِعِبادةِ ربهِ أَحدًا وقد يكتفي بالإشارة إليه وقُلْ اعْملُوا فَسيرى اللـه عملَكُـمْ ورسـولُه والْمؤْمِنُون وستُردون إِلَى عالِمِ الْغيْبِ والشهادةِ فَينَبئُكُمْ بِما كُنتُمْ تَعْملُون وأوصى الرسل يا أَيها الرسـلُ كُلُـوا مِـنْ الطيباتِ واعْملُوا صالِحًا إِني بِما تَعْملُون علِيم . وليس بعد هذا كله غاية في عالم العقائد..

وفي القرآن الكريم ثنائيات تنم عن طبيعته الشاملة والتكاملية ولا يمكن أن يخطئها كل من ألف قراءته فالليل يذكر مع النهار.. والشمس مع القمر، والسموات مع الأرض، والذين يقيمون الصلاة مع الذين يؤتون الزكاة... ومن أبرز هذه الثنائيات في الدلالة فيما نحن بصدده أن القرآن عندما يتحدث عن الذِين آمنُوا فإنه يضيف إليهم دائما وعمِلُوا الصالِحاتِ وقد تكرر هذا في القرآن مرات تجاوز المائة عدا..

وهذا الربط المتواتر ما بين الَّذِين آمنُوا **و** عمِلُوا الصالِحاتِ **يوضح لنا أن الإيمان إنما يكتمل بالعمل الصالح. وإلا فلم يكن هناك مبرر لدوام الربط، ودلالة هذا الربط ومعناه هي ما ذكرناه من أن الإيمان يكتمل بالعمل، ولو أنعم المسلمون النظر في هذه النقطة وتوصلوا إلى دلالتها لما كان هناك داع لكثير من القضايا الجدلية التي كانت مثاراً لمنازعات حادة عن الإيمان، وهل يقتصر على التصديق أو لابد له من عمل. وهل يزيد أو ينقص إلى آخر ما يرد في كتب العقائد وعلم الكلام. فالإيمان دون عمل يخالف دون ريب توجيهات** القرآن **التي تقرن دائما وأبدا الإيمان بالعمل.**

ويغلب أن تأخذ إشارات القرآن إلى المؤمنين صورة من ثلاث صور، فعندما يذكر الَّذِين آمنُوا فإنه كما قلنا يقرن ذلك بتعبير وعمِلُوا الصالِحاتِ والآيات التي جاء فيها هذا القرن أكثر من أن تحصى في هذا الموجز، وعندما يتحدث إلى المؤمنين بصيغة الخطاب يا أَيها الَّذِين آمنُوا فإنه يقرن ذلك بأحد التوجيهات العملية كُلُوا من الطيبات ، لا تُبطِلُوا صدقَاتِكُمْ أَوْفُوا بِالْعقُودِ ، أَنفِقُوا مِما رزقْنَاكُمْ ،



اتقُوا الله وذَروا ما بقِي مِنْ الربا ، لا يحِل لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النساء كَرْهًا ، إلى آخر هذه التوجيهات التي تتعلق بالسلوك أو المواقف التي يجب على المؤمنين وقوفها والالتزام بهـا. وأخيرا فإن القرآن عندما يشير إلى مَنْ آمن فإنه يضـيف إلى ذلك وعمِلَ صالِحًا ، مَنْ آمن بِاللهِ والْيـوْمِ الآخِـر وعمِلَ صالِحًا ، مَنْ آمن وأَصْلَح ، وأَما مَنْ آمن وعمِـلَ صالِحًا ، إِلا مَنْ تَاب وآمن وعمِلَ صالِحًا .. الخ.

وفي بعض الحالات لا يذكر القرآن العمـل صـراحة ولكنه يعطي مضمونه جنبا إلى جنب مختلف العبادات.. ففي سورة الجمعة فَإِذَا قُضِيتْ الصلاةُ فَانتَشِـروا فِـي الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْل اللهِ" ، وفي سورة الحج وأَذنْ فِي الناسِ بِالْحج يأْتُوك رجالاً وعلَى كُل ضامِرٍ يأْتِين مِنْ كُل فَج عمِيقٍ لِيشْهدوا منَافِع لَهمْ ويذْكُروا اسْم اللهِ فِي أَيامٍ معْلُوماتٍ ، ولم يأنف من أن يرمز إلى الإيمان بكلمة **تجارة** هلْ أَدلكُمْ علَى تِجارةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُون بِاللهِ ورسـولِهِ ، إِن الذِين يتْلُون كِتَاب اللهِ وأَقَاموا الصلاةَ وأَنْفَقُوا مِما رزقْنَـاهمْ سِرا وعلَانِيةً يرْجون تِجارةً لَنْ تَبور . وذكر جنبا إلى جنب الذين يقَاتِلُون فِي سبِيل اللهِ الذين يضْرِبون فِي الأَرْضِ

يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ .

فهذه الإشارات كلها للجمع ما بين الصلاة والحج والمنافع وابتغاء فضل ا والرمز للإيمان ومختلف قرباته بالتجارة كلها توضح أن العمل بالمعنى الاقتصادي أي العمل المنتج اعتبر قرينا للإيمان ومصداقا له.

وهذا الجمع المتكرر والمتواتر بين الإيمان والعمل الصالح يوحي أن الإيمان في القرآن **يعد المدخل إلى عالم العقيدة، و"الهوية" للمؤمنين. ولكن هذا المدخل والهوية لا يكفيان وحدهما بل لابد من العمل الصالح الذي يؤكدهما ويصدقهما فليس الإيمان بالتمني ولكن بما يصدقه العمل.**

وهناك إشارات أخرى في القرآن الكريم عن العمل تؤكد **هذه الحقيقة لأنها لا تكتفي بجعل العمل مصداق الإيمان ولكنها تجعله المعيار في الثواب والعقاب فالمؤمنون لا**

يعفون بحكم إيمانهم من الحساب، إن العمل هو الذي سيقرر ما إذا كان هؤلاء المؤمنون يثابون أو يعاقبون.

والآيات عن ذلك عديدة..

يوْم تَجِد كُل نَفْسٍ ما **عمِلَتْ** مِنْ خَيْرٍ محْضـرًا ومـا عمِلَتْ مِنْ سوءٍ تَـود لَـوْ أَن بيْنَهـا وبيْنَـه أَمـدًا بعِيـدًا

(٣٠ آل عمران)

ويسْتَخْلِفَكُمْ فِـي الأَرْضِ فَينظُـر كَيْـفَ **تَعملُـونَ**

(١٢٩ الأعراف)

لِيجْـزيهمْ اللـه أَحْسـن مـا كَـانُوا **يعملُـونَ**

(١٢١ التوبة)

لِيبْلُوكُمْ أَيكُمْ أَحْسن **عملاً** **(٧ هود)**

وتُوفى كُل نَفْـسٍ مـا عمِلَـتْ وهـمْ لا يظْلَمـون

(١١١ النحل)

فَوربـك لَنَسْـأَلَنهمْ أَجْمعِينَعمـا كَـانُوا يعْملُـون

(٩٢-٩٣ الحجر)

منْ **عمِلَ** سيئَةً فَلا يجْزى إِلا مِثْلَها ومنْ **عمِلَ** صـالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وهو مؤْمِن فَأُوْلَئِك يدْخُلُون الْجنةَ يرْزقُـون فِيها بِغَيْر حِسابٍ **(٤٠ غافر)**

مَنْ **عمِلَ** صالِحًا فَلِنَفْسِهِ ومنْ أَساء فَعلَيْها ومـا ربـك بِظَلامٍ لِلْعبِيدِ **(٤٦ فصلت)**

منْ **عمِلَ** صالِحًا فَلِنَفْسِهِ ومنْ أَساء فَعلَيْها ثُم إِلَى ربكُمْ تُرْجعون **(١٥ الجاثية)**

أُوْلَئِكَ أَصْحاب الْجنةِ خَالِدِين فِيها جزاءً بِما كَـانُوا **يعملُون** **(١٤ الأحقاف)**

منْ كَفَر فَعلَيْهِ كُفْره ومنْ **عمِـلَ** صـالِحًا فَلأنفُسِـهِمْ يمْهدون **(٤٤ الروم)**

وفي القرآن الكريم جزء من آية، ثلاث كلمـات بعيـدة الدلالة والمغزى تلـك هـي وعلمْنَـاه صـنْعةَ لَبـوسٍ **(٨٠ الأنبياء)**

من هذه الكلمات الثلاث نعلم أن الحديث صادر مـن ا تعالى.. فا تعالى هو الذي "علم" وأن الحديث موجـه إلـى داود، رأس بني إسرائيل وفخرها وأن ما علّمه ا لداود هو صنعة الدروع. فأي تكريم للصنعة كما جاءت اللفظة القرآنية وهي نفسها اللفظة السارية بين العمال اليدويين.. أن يعلّمهـا ا نفسه لداود نفسه.. كما تضمن الآية أيضا **أن العالـم هـو وسيلة الصنعة وليس شيئا آخر.**

وأبرز من هذا كله في الدلالة الآية ﴿الذِي خَلَقَ الْمـوْتَ والْحياةَ لِيبْلُوكُمْ أَيكُمْ أَحْسن عملاً﴾. **فلا شيء أصرح من هذا في أن ا تعالى جعل هذه الحياة الدنيا امتحانا يدور حـول العمل.**

* * *

ويتفق الحديث النبوي مع القرآن الكريم في الجمع مـا بين الإيمان والعمل واعتبار العمل مبرر الثواب والعقـاب. فالحديث النبوي عن أن الإيمان بضع وسبعون (وفي روايـة وستون) شعبة أعلاها لا إله إلا ا وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، يوضح لنا مدى شمول الإيمان بدءا من ذروة العقيدة حتى أدنى عمل من الأعمـال اليدويـة.. وهنـاك الحـديث المشهور عن الشاب الجلد الذي تمنى الصحابة لو كان جلـده في سبيل ا فصحح النبي ﷺ لهم هذا المفهوم "لو كان يسعى على أبوين شيخين فانه في سبيل ا أو يسعى علـى نفسـه يعفها فهو في سبيل ا "، فسبيل ا لـيس مقصـورا علـى الصلاة والصيام.

واعتبر النبي ﷺ أن "أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة وحماك عن الضعيف صـلاة وإنحـاؤك الأذى عـن

الطريق صلاة"، رواه ابن خزيمة في صحيحه وتحدث عـن رجل "يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهـر الطريـق كانت تؤذي المسلمين.." ويقابل هذا امرأة "دخلت النار فـي هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل مـن خشـاش الأرض". وجاء في كتاب "**أدب الدنيا والدين**" للماوردي:

وقد قال ا تعالى لنبيه ﷺ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وإِلَـى ربك فَارْغَبْ قال أهل التأويل فإذا فرغت من أمور الـدنيا فانصب في عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيـه ﷺ فيها ولكن ندبه إلى أخذ البلغة منها. وعلى هذا المعنى قال ﷺ ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة.. ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه وروى عن النبي ﷺ أنه قـال "نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة" وذم رجل الـدنيا عند علي ابن أبي طالب كرم ا وجهه فقال رضي ا عنـه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنهـا ودار غنى لمن تزود منها." (١)

وعن أنس قال كنا مع النبي ﷺ في السفر فمنا الصـائم ومنا المفطر فنزلنا منزلا في يوم حار فسقط الصوامون وقام

(١) طبعة وزارة المعارف العمومية ١٩٢٨ ص١١١.

المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال النبي ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله.

وكما فضل النبي ﷺ هؤلاء المفطرين في السفر علـى الصائمين ورأى أنهم "ذهبوا بالأجر" فقد فضل فـي حـديث تعددت رواياته امرأة لا تؤدي إلا الفرائض ولكنها تتصـدق ولا تؤذي جيرانها على امرأة أخرى كثيرة الصلاة والصـيام ولكنها تؤذي جيرانها.

وعن أبي قلابة أن ناسا من أصحاب النبـي ﷺ قـدموا يثنون على صاحب لهم خيرا قالوا ما رأينا مثل فلان قط مـا كان يسير إلا كان في قراءة ولا نزلنا منزلا إلا كـان فـي صلاة قال فمن يكفيه ضيعته ومن كان يعلف جمله أو دابتـه قالوا نحن قال فكلكم خير منه. وعن النبي ﷺ أنه قال ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكـل منـه الطيـر أو الإنسان إلا كان له به صدقة. وقال "لو قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها".

وعن عبد ا بن مسعود قال رسول ا "طلـب كسـب الحلال فريضة بعد الفريضة".

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم وزاد البيهقي في شعب الإيمان برواية فضاله "والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة ا والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب".

وعنه أنه قال "لا إيمان لمن لا أمانة له". وقال "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم".

وعن أنس قال رسول ا ﷺ "يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله".

وكان النبي ﷺ يستعيذ من "علم لا ينفع" كما يستعيذ من "قلب لا يخشع" ويقول إذا أراد ا يقوم سوءا أوتوا الجدل ومنعوا العمل.. وكان الدعاء المأثور "اللهم علّمني ما ينفعني وانفعني بما علّمتني".

وحديث المفلس يوضح لنا أهمية العمل في مقابل العبادة وكيف أن العبادة لا تغني عنه، ونصه "أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس

من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصوم وزكاة، وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضـرب هـذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنت حسـناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليـه ثـم طرح في النار". رواه مسلم..

فهذه الأحاديث كلها هي كالآيات التي استشهدنا بها مـن قبل تجمع ما بين الإيمان والعمل توضح أنه حتى تعبيـرات الصدقة والصلاة والإيمان والجهاد والمسلم والمؤمن تتسـع لصنوف من الأعمال مستقلة عن العبادات قدر ما هي متصلة بممارسات من صميم الحياة العملية واليومية للنـاس بـل أن العبادات نفسها تحكم بهذه الممارسات والأعمال وتقاس بهـا حتى وإن شملت أدنى الأعمال وامتدت إلى الحيوان والجماد.

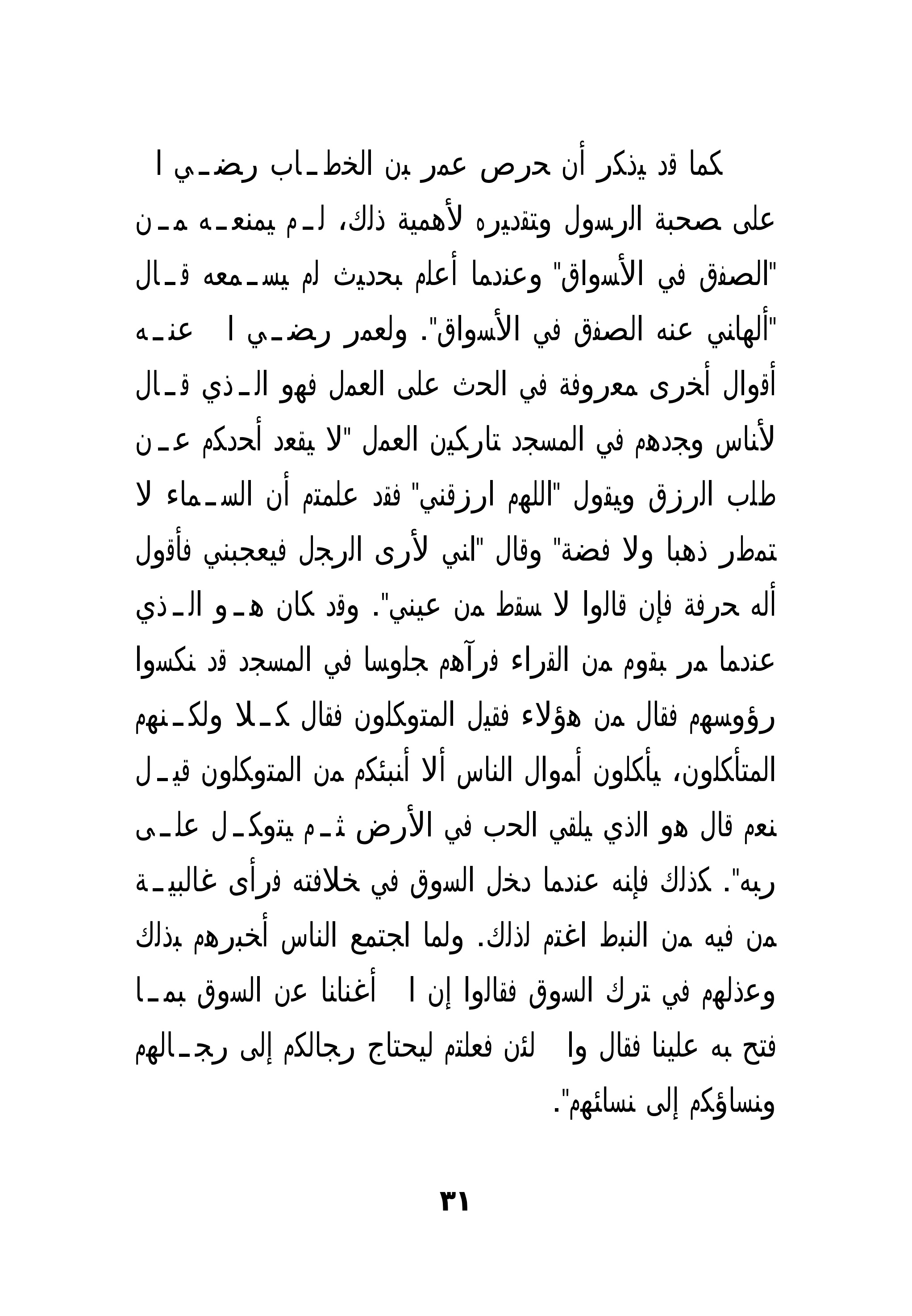
وقال عمر بن الخطاب رضي ا عنه "لأن أموت بـين شعبتى رحلى أضرب في الأرض ابتغي من فضل ا أحـب إلى من أن أقتل مجاهدا في سبيل ا " وقد ذكر هذه الروايـة أحد الفقهاء والأساتذة في السعودية على أساس أنها تقديم من عمر بن الخطاب للكسب على الجهاد اسـتنادا علـى تقـديم القرآن الذين يضربون في الأرض لكسـب الـرزق علـى

المجاهدين في سبيل ا   وآخَرون يضْـرِبون فِـي الأَرْضِ يبْتَغُون مِنْ فَضْل اللهِ وآخَرون يقَاتِلُون فِـي سـبِيل اللـهِ (المزمل **٢**). ونقل ما رآه بعض الفقهاء من أن الجهاد فرض "وقد اقترن بالضرب في الأرض للاكتساب فيكون الاكتساب فرضا بدلالة الاقتران وتقديمـه علـى القتـال يـدل علـى أولويته"[١]، ورأى الكاتب أن هذا لا يخرج عما أراده عمـر من قوله واستطرد "والحقيقة أنه لولا الكسب لما قام الجهـاد في سبيل ا ، لأن المال عصب القتال، ومن هنا جاءت أهمية الإعداد الاقتصادي والاقتصاد الحربي لتمويـل الحـروب، خاصة في العصر الحاضر، إذ المال هو الوقـود الحقيقـي للحروب حيث تصمد الدولة في القتال ما قويت على تمويـل حربها."[٢]

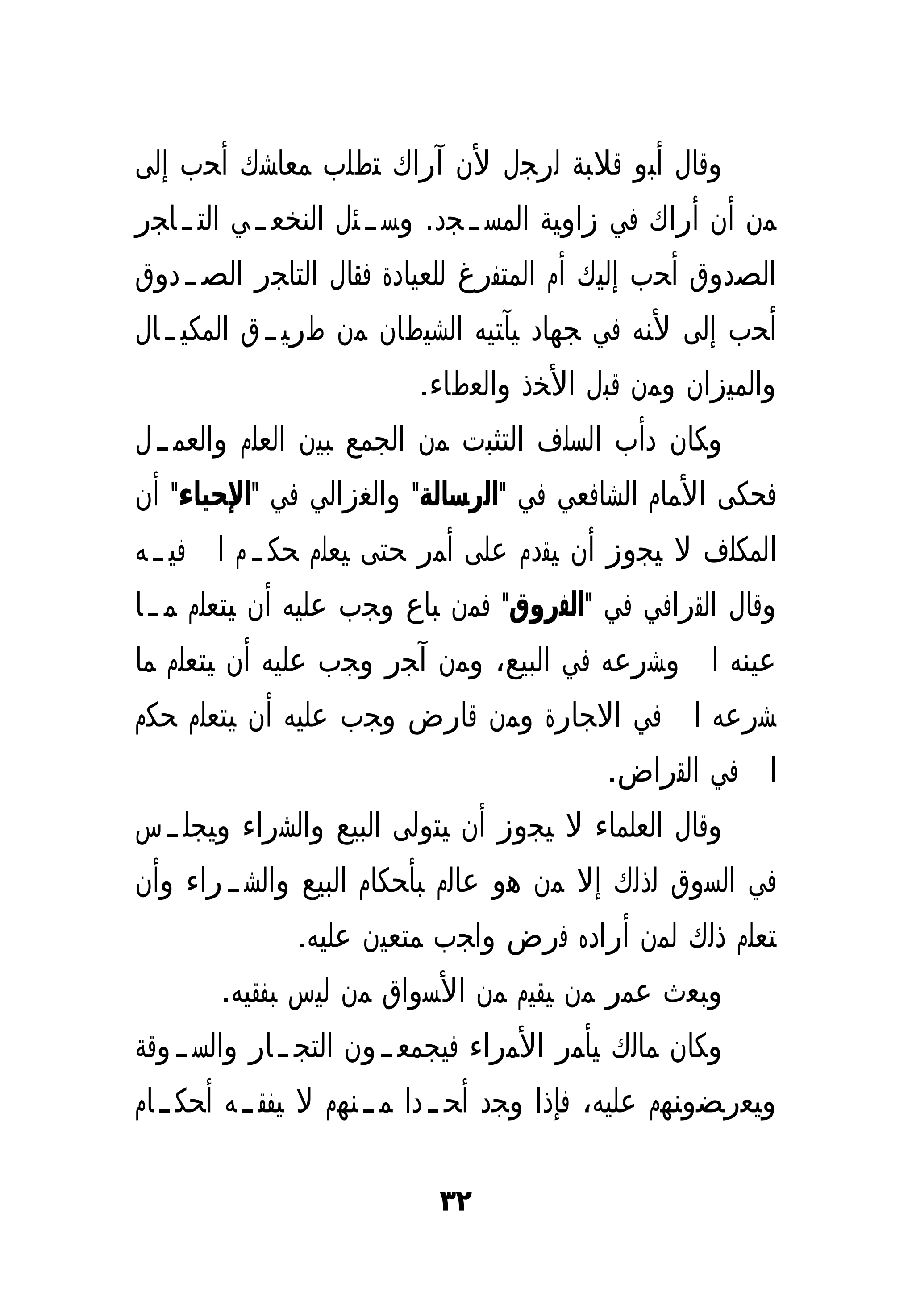
وقد يذكر في هذا الصدد أن القرآن الكريم عندما يـذكر الذين يجاهِدون فِي سبِيل اللهِ فإنه دائمـا يـذكر الـذين يجاهدون بِأَمْوالِهِمْ أولا ثم بـ أَنفُسِهِمْ ثانيا.

---

(١) الاحتراف وآثاره في الفقه الإسلامي للدكتور محمد رواس قلعجي، صفحة ٢١ و٢٢ بحث نشره المركز العالي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي جامعة الملك عبد العزيز جده.
(٢) المصدر نفسه.



كما قد يذكر أن حرص عمر بن الخطـاب رضـي ا على صحبة الرسول وتقديره لأهمية ذلك، لـم يمنعـه مـن "الصفق في الأسواق" وعندما أعلم بحديث لم يسـمعه قـال "ألهاني عنه الصفق في الأسواق". ولعمر رضـي ا عنـه أقوال أخرى معروفة في الحث على العمل فهو الـذي قـال لأناس وجدهم في المسجد تاركين العمل "لا يقعد أحدكم عـن طلب الرزق ويقول "اللهم ارزقني" فقد علمتم أن السـماء لا تمطر ذهبا ولا فضة" وقال "اني لأرى الرجل فيعجبني فأقول أله حرفة فإن قالوا لا سقط من عيني". وقد كان هـو الـذي عندما مر بقوم من القراء فرآهم جلوسا في المسجد قد نكسوا رؤوسهم فقال من هؤلاء فقيل المتوكلون فقال كـلا ولكـنهم المتأكلون، يأكلون أموال الناس ألا أنبئكم من المتوكلون قيـل نعم قال هو الذي يلقي الحب في الأرض ثـم يتوكـل علـى ربه". كذلك فإنه عندما دخل السوق في خلافته فرأى غالبيـة من فيه من النبط اغتم لذلك. ولما اجتمع الناس أخبرهم بذلك وعذلهم في ترك السوق فقالوا إن ا أغنانا عن السوق بمـا فتح به علينا فقال وا لئن فعلتم ليحتاج رجالكم إلى رجـالهم ونساؤكم إلى نسائهم".



وقال أبو قلابة لرجل لأن آراك تطلب معاشك أحب إلى من أن أراك في زاوية المسـجد. وسـئل النخعـي التـاجر الصدوق أحب إليك أم المتفرغ للعبادة فقال التاجر الصـدوق أحب إلى لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريـق المكيـال والميزان ومن قبل الأخذ والعطاء.

وكان دأب السلف التثبت من الجمع بين العلم والعمـل فحكى الأمام الشافعي في "**الرسالة**" والغزالي في "**الإحياء**" أن المكلف لا يجوز أن يقدم على أمر حتى يعلم حكـم ا فيـه وقال القرافي في "**الفروق**" فمن باع وجب عليه أن يتعلم مـا عينه ا وشرعه في البيع، ومن آجر وجب عليه أن يتعلم ما شرعه ا في الاجارة ومن قارض وجب عليه أن يتعلم حكم ا في القراض.

وقال العلماء لا يجوز أن يتولى البيع والشراء ويجلـس في السوق لذلك إلا من هو عالم بأحكام البيع والشـراء وأن تعلم ذلك لمن أراده فرض واجب متعين عليه.

وبعث عمر من يقيم من الأسواق من ليس بفقيه.

وكان مالك يأمر الأمراء فيجمعـون التجـار والسـوقة ويعرضونهم عليه، فإذا وجد أحـدا مـنهم لا يفقـه أحكـام

المعاملات، ولا يعرف الحلال من الحرام أقامه من السـوق وقال له تعلم أحكام البيع ثم اجلس في السوق، فإن من لم يكن فقيها أكل الربا. وكان التجار في القديم إذا سافروا استصحبوا معهم فقيها يرجعون إليه في أمرهم.

وفي المعاصرين ذهب الشيخ محمود شلتوت رحمه ا إلى أن القرآن **يعبر عن العقيدة بالإيمان.. وعـن الشـريعة "بالعمل الصالح" وأن الإسلام يحتم "تعانق الشريعة والعقيدة بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى على أن تكون العقيـدة أصلا يدفع إلى الشريعة والشريعة تلبيـة لانفعـال القلـب بالعقيدة. وقد كان هذا التعانق طريق النجاة والفوز بما أعده ا لعباده المؤمنين."**[١] وهو لا يخرج عما ذهبنا إليه من أن العمل هو مصداق الإيمان.

ومقارنة جانبيّ العمل - أي العمل كمصداق للإيمـان.. والعمل كمعيار للثواب والعقـاب توضـح لنـا أن العمـل الإسلامي وإن كان محكوما بالإيمـان ويفتـرض أن يـأتي تصديقا له.. **إلا أنه من ناحية أخرى له وجوده الموضوعي وكيانه الخاص.** فالعمل الحسن أو بالتعبير القرآني (الصالح)

---

(١) كتاب "الإسلام عقيدة وشريعة" ص ٦ ، ٧.

من كرم أو شجاعة أو عـدل أو إنفـاق أو وفـاء بالعهـد والوعد... الخ، له كيانه الخاص ووجوده قبل الإسلام وبعـد الإسلام وسواء وقع في دار إسلام أو في دار كفـر... مـن مسلم أو غير مسلم.

وحتى في الجانب الذي يكـون العمـل فيـه محكومـا بالإيمان فليس هناك صعوبة في تبـين أن دعـوى الإيمـان مفتوحة ولا يمكن جحدها لكل من يدعيها أو يقول "لا إله إلا ا محمد رسول ا " وأننا لا نستطيع أن نفترض فـي كـل واحد فناء الحلاج أو هيام رابعة العدوية مما لا يمكن ضبطه أو تقديره، وما يمكن أن يجنح بصاحبه إلى بحـار الأهـواء المتلاطمة. وبالتالي فإن الدليل الوحيد لابد أن يكون العمـل، لأن النية والقلب محجوبان عن هذا المجتمع لا يعلمهمـا إلا ا ، **ولهذا المعنى جاز للعمل - وهو المحكوم بالإيمـان – أن يكون هو نفسه دليلا على الإيمـان، ومعيـارا للثـواب والعقاب،** فَمنْ يعْملْ مِثْقَالَ ذَرةٍ خَيْرًا يره، ومنْ يعْملْ مِثْقَالَ ذَرةٍ شَرا يره .

وهناك حكمة دقيقة وهامة في هذا القرن ما بين الإيمان والعمل، وجعل العمل مصداقا للإيمان، ذلك أن العبادات التي

تصطحب تقليديا في الأذهان بالإيمان من صلاة أو صيام أو حج... الخ، يمكن أن تصبح طقوسا شكلية، ويمكن ان تصبح أداة لتعميق الإحساس بالذات بصرف النظر عن المجتمـع. فالمصلي لا يعنيه ما تدور عليه حياة الناس حوله وما يمـلأ دنياهم من هموم ومشاكل ما دام هو عاكف علـى صـلاته وصيامه، مؤمن أنه أدى واجبه وأنقذ نفسه وأرضى ربه، بل قد يتطور الأمر فتعطي هذه الصلاة والصيام منعزلـة عـن العمل إشباعا كاذبا يرضي الضمير، وأن هذا هو المطلـوب منه، وقد أداه فلا عليه إذا انصرف إلى غير ذلك مما يـراه خارج إطار العبادة وطبقا لمصلحته وهواه دون أي اعتبـار آخر، وأخيرا فقد تحيف العبادة على العمل، كما يحدث عندما يترك موظف عمومي عمله ليصلي الظهر بمجـرد سـماعه الأذان ويدع الناس واقفين أو متعطلين في انتظاره وقد يطيل ويصلي النوافل أيضا، وكأنه يتلذذ بتعذيب الناس أو يتقـرب إلى ا بتعطيل أعمالهم!! في حين أن فـي الوقـت المبـاح متسع، وأن تفريج كربات الناس أفضل من أي قربى أخرى، وقد تحرص إحدى الموظفات على أن تغطي رأسها بطرحـة كثيفة، ولكنها لا تحرص على خدمة المواطنين، وقد تكون قد

لفت رأسها تخلصا من تصفيف شـعرها أو سـترا لـبعض عيوبه، أي لغرض مادي وذاتي، أكثر مما هو استجابة لمـا تظن أنه توجيه من الشريعة.

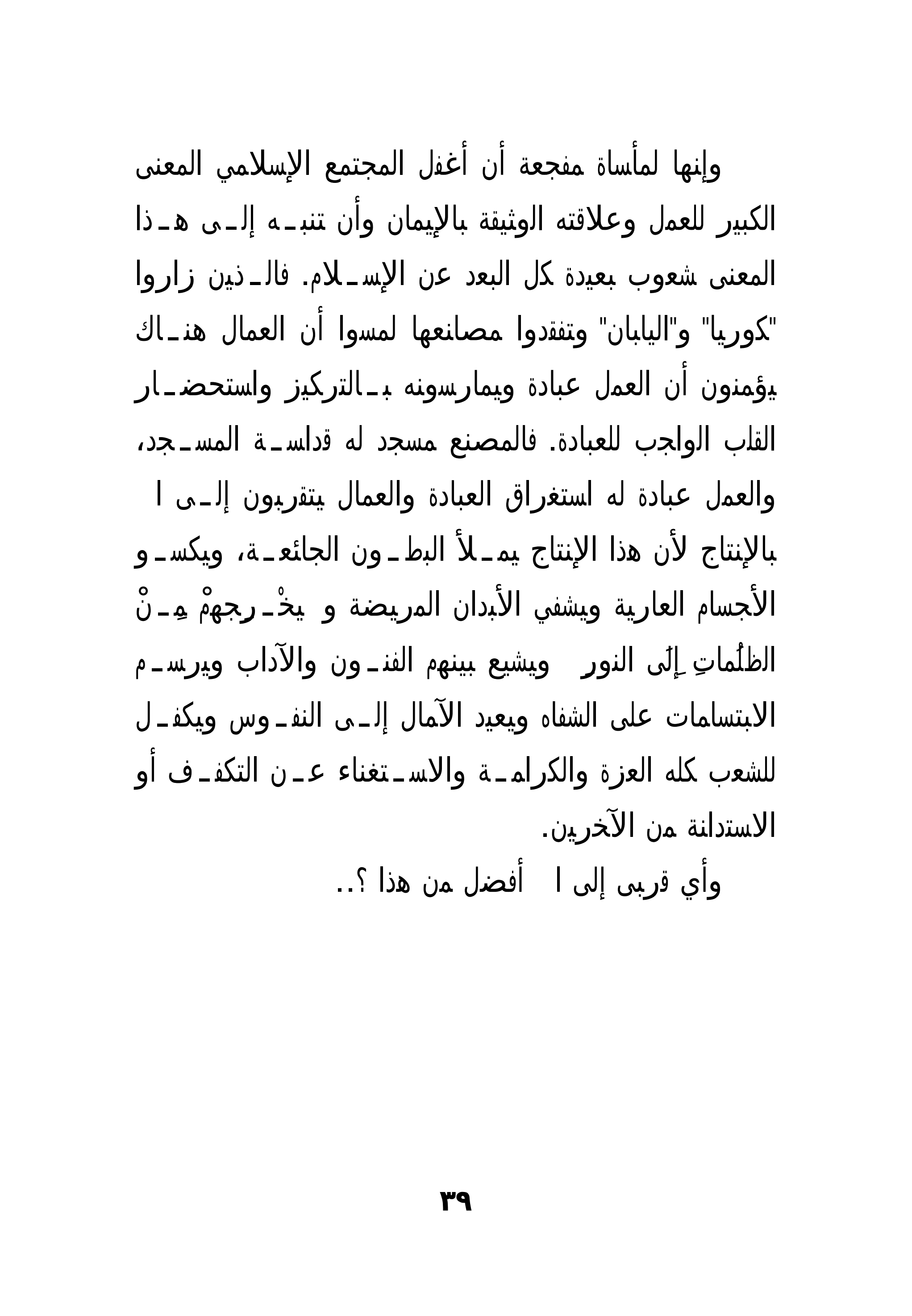
وعلى مستوى المجتمع فإن تقوقع الوعي الإسلامي في إطار العبادة وتخليه عن مجال العمل والحياة أدى إلى صور من المفارقات تثير الدهشة والأسى. فكيـف وسـع علمـاء الأزهر الأجلاء السكوت على ظاهرة البغـاء. أو بـالتعبير القرآني (الزنا) المصرح به من الدولة والذي كـان يمـارس تحت حمايتها ورعايتها لأكثر من خمسين عامـا.. وعنـدما قضي عليه، فلم يحدث ذلك تلبية لضغط من علماء الأزهـر، ولكن كمناورة سياسية. وكيف يجوز حتـى الآن أن تسـتمر المحال العامة الكبرى ومعظمها قطاع عام في جعل أجازتها الأسبوعية الأحد، بحيث يكون البيع والشراء على أشده يـوم الجمعة.. والأذان يتعالى ونص القرآن صريح وصادع يـا أَيها الذِين آمنُوا إِذَا نُودِي لِلصلاةِ مِنْ يوْمِ الْجمعةِ فَاسْعوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وذَروا الْبيْع ذَلِكُمْ خيْر لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمـون ، ولا يرتفع صوت من عالم أو من نقابة عمال التجارة يقول "على الأقل اغلقوا هذه المحال وقت الصلاة وأوقفوا هذا التحـدي

والوقاحة لنص القرآن وتوجيهه". بل إن المساجد نفسها ظلت حتى فترة قريبة جدا مسـرحا للكاسـيات العاريـات مـن السائحات دون أن يخطر في ذهـن أحـد مـن الشـيوخ أن يلزمهن أدب الإسلام ما دمـن يـدخلن مسـاجد الإسـلام.. وتجاهل المشرفون على جامعة الأزهر صورا عديـدة مـن تبرج الطالبات بعد أن وقف الشيخ النجـار لهـذه الظـاهرة بالمرصاد وكاد يقضي عليها عندما كان مديرا للأزهر..

باختصار فإن الفصل ما بين "الإيمان" و"العمل" عـزل الإسلام عن مجال الحياة تماما وأدى إلـى إعمـال المبـدأ المسيحي "دع ما لقيصر لقيصر ومـا " فـي المجتمـع الإسلامي أكثر مما هو مطبق في المجتمع المسـيحي حيـث يكون للمسيحية صوت في المجتمع، وإن تخلت عن السياسة.

وحقيقة أن العمل، كما توضح الآيات التي استشهدنا بها من قبيل المثال لا الحصر - هو مصداق الإيمـان ومعيـار الثواب والعقاب يجب أن لا تثير دهشتنا لأن الإسـلام ديـن حياة ومجتمع وهو يرسـي أسسـا محـددة فـي الاقتصـاد والسياسة، ويتطلـب مسـتويات معينـة فـي التصـرفات والمعاملات، فلابد أن يكون العمل هو المحور والمعيار داخل

الإطار الواسع للإيمان.. وبدون ذلك لا يمكـن للمجتمـع أن يكون قويا متماسكا سليما ولا يمكن أن تتوفر له القوة والمنعة والعزة والحماية من افتيات الدول الأخرى. بل ولا يتوفر له العلم الذي هو في أساس الإيمان ﴿إنما يخْشَى الله مِنْ عِبادِهِ الْعلَماء﴾. وعندما أهمل المجتمع الإسلامي "العمل" أو أسـاء فهمه فإن هذا المجتمع قد هـوى بسـرعة وتراجـع أمـام المجتمعات التي أخذت بأسباب العمل ولو أمعـن المسـلمون النظر في قرآنهم لفهموا العمل حق الفهم ولما كان لهم عـذر في الخلط ما بين " العمل" والعبادة أو الظن أن العمـل إنمـا يراد به الصلاة والصيام... الخ. فتفرقـة القـرآن واضـحة فالعمل الصالح له محتواه ومضمونه الذي يتميز عن الشعائر من صلاة وصيام والذي يذكره القرآن جنبا إلى جنب الصلاة والصيام مما يوضح أن له كيانه الخاص. وعندما أشـار ا إلى وراثة الأرض فإنه لم يورثها للمسلمين أو المصـلين أو المؤمنين ولكن للصالحين وسنرى في فصل تـال مـا هـو المدلول الحقيقي لمعنى "الصلاح والصلاحية" التـي أرادهـا القرآن.



وإنها لمأساة مفجعة أن أغفل المجتمع الإسلامي المعنى الكبير للعمل وعلاقته الوثيقة بالإيمان وأن تنبه إلى هذا المعنى شعوب بعيدة كل البعد عن الإسلام. فالذين زاروا "كوريا" و"اليابان" وتفقدوا مصانعها لمسوا أن العمال هناك يؤمنون أن العمل عبادة ويمارسونه بالتركيز واستحضار القلب الواجب للعبادة. فالمصنع مسجد له قداسة المسجد، والعمل عبادة له استغراق العبادة والعمال يتقربون إلى ا بالإنتاج لأن هذا الإنتاج يملأ البطون الجائعة، ويكسو الأجسام العارية ويشفي الأبدان المريضة و يخْرِجهمْ مِنْ الظلُماتِ إِلَى النورِ ويشيع بينهم الفنون والآداب ويرسم الابتسامات على الشفاه ويعيد الآمال إلى النفوس ويكفل للشعب كله العزة والكرامة والاستغناء عن التكفف أو الاستدانة من الآخرين.

وأي قربى إلى ا أفضل من هذا ؟..

الفصل الثانى

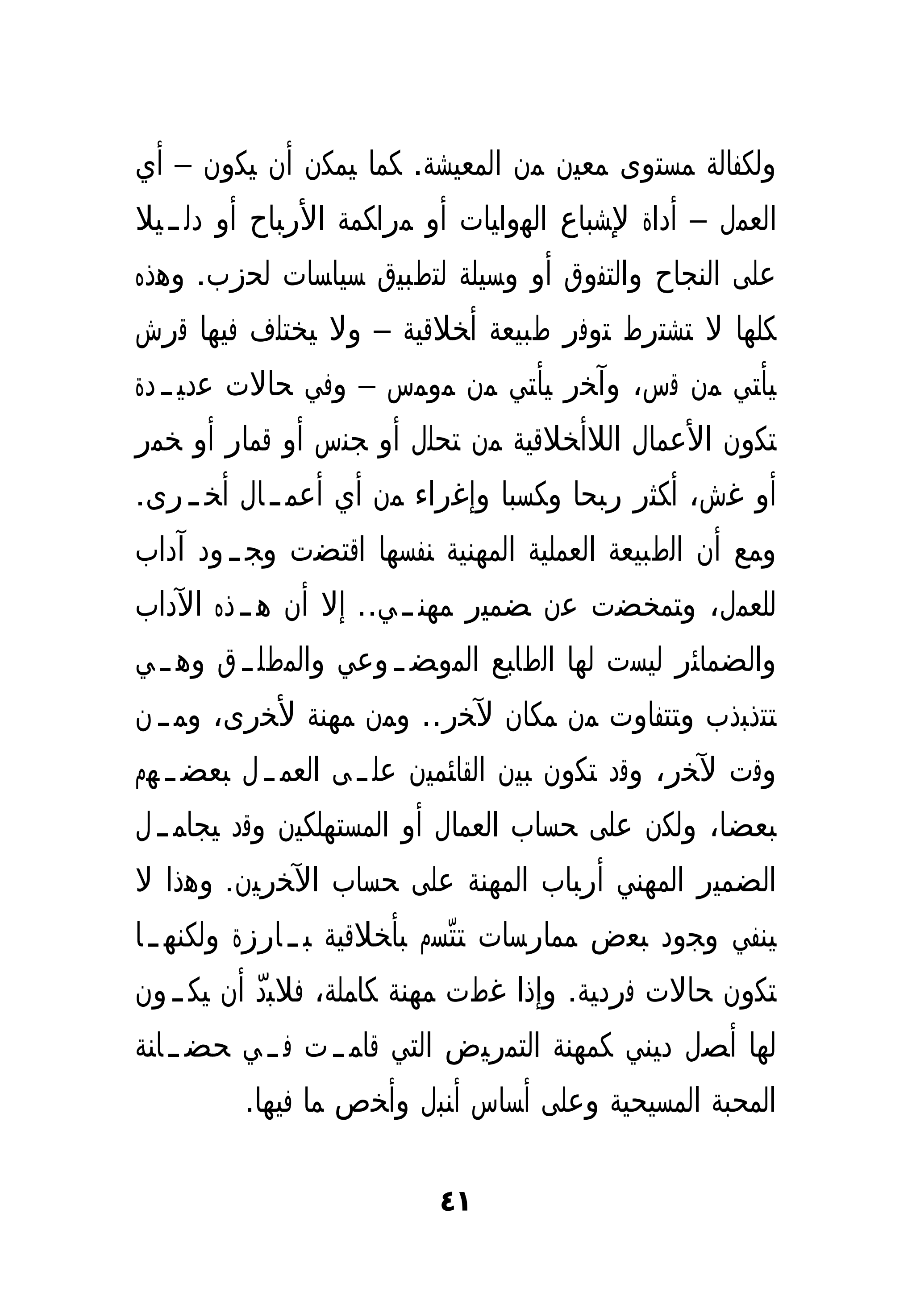
أخلاقيات العمل

القربى إلى الله والمبدئية الاسلامية

لما كان العمل – كما قدمنا – هو مصداق الإيمان في الحياة الدنيا وفي الآخرة.. فإن هذا يستتبع أن يأخذ العمل الإسلامي الطبيعية الأخلاقية – الإيمانية التي تتسم بها الأديان جميعا، والتي تميزها عن النظم والقوانين الوضعية. إذ المفروض أن يأتي المصداق والمعيار من صميم ما يصدر عنه، أو يقاس به.

فالعمل في الإسلام جزء لا يتجزأ من البناء الإسلامي وهو إجمال لكافة الفرائض الإسلامية – عبادية أو دنيوية. وبالتالي فإنه يكتسب تلك الهالة من القدسية المعنوية والأدبية التي يضفيها الدين على كل ما يمت إليه.

وهذه الحقيقة تعطي العمل الإسلامي طبيعة تختلف كل الاختلاف عن طبيعة العمل في المجتمع الرأسمالي أو الشيوعي حيث لا يكون للعمل – بالضرورة – طبيعة أخلاقية، ويقتصر على أن يكون وسيلة لتقاضي الأجر



ولكفالة مستوى معين من المعيشة. كما يمكن أن يكون – أي العمل – أداة لإشباع الهوايات أو مراكمة الأرباح أو دلـيلا على النجاح والتفوق أو وسيلة لتطبيق سياسات لحزب. وهذه كلها لا تشترط توفر طبيعة أخلاقية – ولا يختلف فيها قرش يأتي من قس، وآخر يأتي من مومس – وفي حالات عديـدة تكون الأعمال اللاأخلاقية من تحلل أو جنس أو قمار أو خمر أو غش، أكثر ربحا وكسبا وإغراء من أي أعمـال أخـرى. ومع أن الطبيعة العملية المهنية نفسها اقتضت وجـود آداب للعمل، وتمخضت عن ضمير مهنـي.. إلا أن هـذه الآداب والضمائر ليست لها الطابع الموضـوعي والمطلـق وهـي تتذبذب وتتفاوت من مكان لآخر.. ومن مهنة لأخرى، ومـن وقت لآخر، وقد تكون بين القائمين علـى العمـل بعضـهم بعضا، ولكن على حساب العمال أو المستهلكين وقد يجامـل الضمير المهني أرباب المهنة على حساب الآخرين. وهذا لا ينفي وجود بعض ممارسات تتّسم بأخلاقية بـارزة ولكنهـا تكون حالات فردية. وإذا غطت مهنة كاملة، فلابدّ أن يكـون لها أصل ديني كمهنة التمريض التي قامـت فـي حضـانة المحبة المسيحية وعلى أساس أنبل وأخص ما فيها.

إن قصور الفكر الغربي في مجال العمـل لـم يحـدث بالنسبة للوسائل، فقد أبـدع الكثيـر منهـا.. فقـد تحـدث البروفيسور تاوني عن الملكية كوظيفة والمهنـة كرسـالة، وتحدث بيتر دركر عن المنشأة كمجتمـع، وأشـار الكتّـاب الأمريكيون إلى العلاقات الإنسانية.. وتوصل العمـال فـي ألمانيا الغربية إلى المشاركة في الإدارة، كما تـولّى العمـال بأنفسهم الإدارة في يوجوسلافيا ولكن كل هذه الوسـائل لـم تنجح تماما لأنها فقدت أي أساس ديني لها. والأساس الديني هو القاعدة الصلدة لأخلاقيات العمل. فلم تصل هذه الوسـائل إلى العمق المطلوب.. كما تطرقت إليها درجات متفاوتة من الفساد والوهن، لم تكن مألوفة عندما كانت العلاقة بين الدين والعمل قائمة، قبل أن تودي بها "كلبية" الرأسمالية الضارية..

وكل من يقرأ تاريخ الطوائف الحرفية التي انتشرت في الشرق والغرب وتولت تنظيم علاقات العمل يعرف أنه لـم يكن يسمح لأي "صبي" بأن يكون "صانعا" أو لأي "صانع" أن يكون "أسطى" أو لأي "أسطى" أن يكون "معلما" إلا بعـد أن يشهد له المعلمون الحاضرون بحسن الخلق.. وكرم المعاملة

وإتقان العمل وأداء الفروض الدينية، ففي هذه العهـود كـان إتقان العمل والتمسك بالشعائر الدينية وجهين لعملة واحدة...

وتصور إحدى الوثائق الطريقة التي كانت تتم بها حفله "الشد والحزام" التي يمكن عن طريقهـا للعامـل أن يـدخل الصنعة..

... ".. ويكون جميع الحاضرين جالسين على ركـبهم مطرقي الرؤوس ثم يطلب النقيب من العامل قراءة الفاتحـة مرة ثانية ثم يذكر النبي ويتلو الفاتحة مرة ثالثـة، وبعـد أن يفرغ منها يسلم النقيب سبع سلامات. سلام على الحاضرين، وسلام على الحرفة وشيوخها وسلام على أهل الميمنة وسلام على أهل الميسرة وسلام على السادة وسلام على الإصـلاح وسلام على الأحباب ثم يلتفت إلى العامل ويقول له أوصـيك يا من تخاوي أو تعاهد بأداء الفروض ورعاية العهد ويشـهد عليك الحفظة وسيكتب من يضيعه من المبعدين.

يا بني إن جميع الحرف أهلها أمناء علـى الأعـراض والأرواح والأموال – فكن صادقا أمينا واعلم أن كارك مثل عرضك حافظ عليه بكل ما تملك، وإذا استلمت أموال الناس فلا تفرط فيها واياك أن تخون أهل لحرفة. والخائن مسئول..

ثم يلتفت إلى الحاضرين ويسألهم.

- هل يستحق أن يكون صانعا.

فيقولون – نعم.

وحينئذ يأخذ عليه العهود الخ..."[1]

ومن الجمل ذات المغزى العميق التي وردت في هذه الفقرة جملة "واعلم أن كارك مثل عرضك" فالحرفة هي كالعرض يلحظ فيها من الأمانة والصيانة والحفظ والغيرة ما يلحظ للعرض...

* * *

ومنابع أخلاقيات العمل في الإسلام ثلاثة:

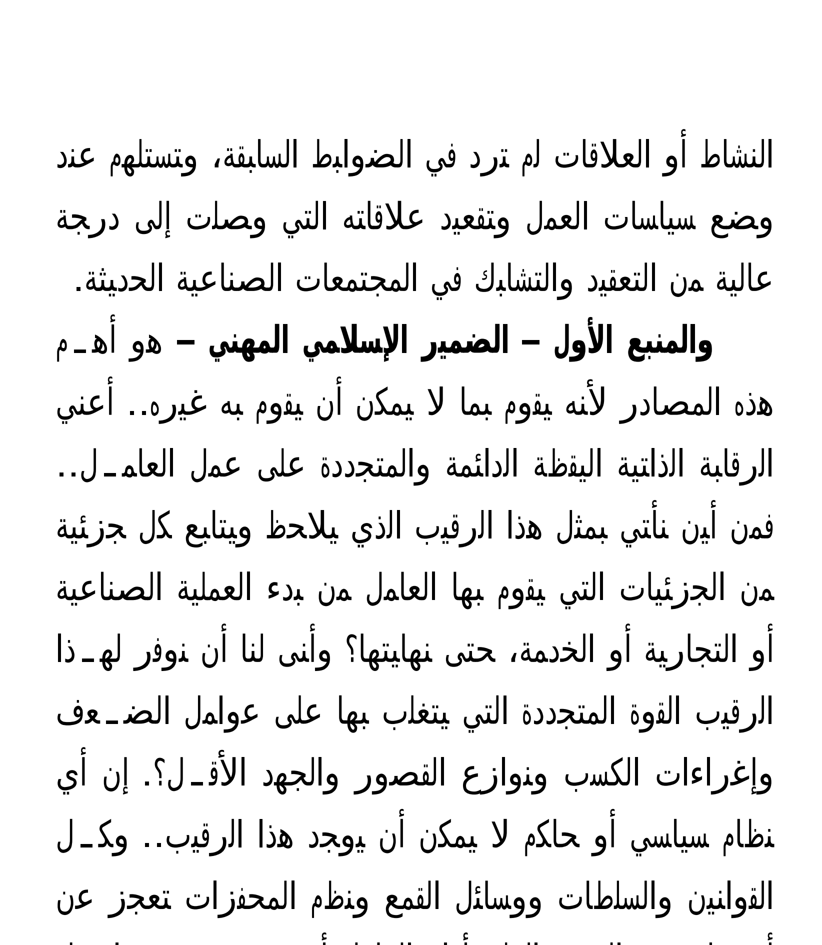
الأول – الضمير الإسلامي المهني في الفرد.

الثاني – الضوابط التي وضعتها الشريعة لتحقيق الأخلاقيات الإسلامية من تحليل أو تحريم لمختلف الممارسات العملية والاقتصادية.

الثالث – أصول ومقاصد الشريعة والروح العامة للإسلام التي يستضاء بها عند حظر أو إيجاب صنوف من

---

(١) انظر كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص ٥٠.

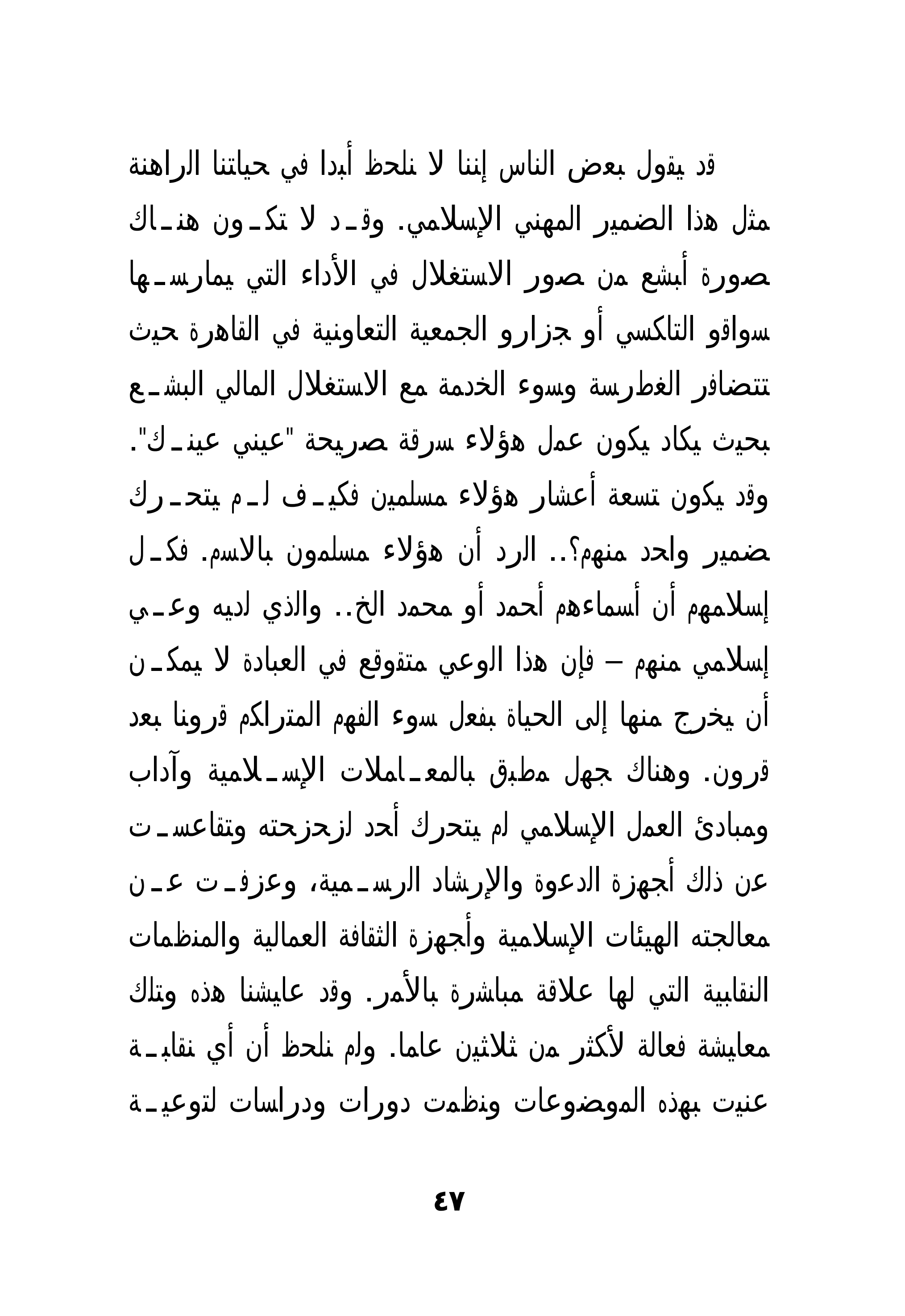


النشاط أو العلاقات لم ترد في الضوابط السابقة، وتستلهم عند وضع سياسات العمل وتقعيد علاقاته التي وصلت إلى درجة عالية من التعقيد والتشابك في المجتمعات الصناعية الحديثة.

والمنبع الأول – الضمير الإسلامي المهني – هو أهـم هذه المصادر لأنه يقوم بما لا يمكن أن يقوم به غيره.. أعني الرقابة الذاتية اليقظة الدائمة والمتجددة على عمل العامـل.. فمن أين نأتي بمثل هذا الرقيب الذي يلاحظ ويتابع كل جزئية من الجزئيات التي يقوم بها العامل من بدء العملية الصناعية أو التجارية أو الخدمة، حتى نهايتها؟ وأنى لنا أن نوفر لهـذا الرقيب القوة المتجددة التي يتغلب بها على عوامل الضـعف وإغراءات الكسب ونوازع القصور والجهد الأقـل؟. إن أي نظام سياسي أو حاكم لا يمكن أن يوجد هذا الرقيب.. وكـل القوانين والسلطات ووسائل القمع ونظم المحفزات تعجز عن أن تتابع في السر والعلن أداء العامل أو تقهر فيـه عوامـل الضعف والإغراء، وليس هناك سوى قـوة واحـدة قـاهرة مهيمنة عالمة بالسر والنجوى هي قوة ا .. وليس هناك من شخصية تتمتع بالتقديس وتلهم الأسـوة والقـدوة كشخصـية محمّد، من هنا فإن ما يأمر به ا   وما يوجه إليـه الرسـول

يصل إلى أعمق أعماق العامل ويصـبح العمـل الإسـلامي استجابة لإرادة ا   في إعمار الكون وقربى إليه بتنفيذ أوامره وتطبيق توجيهات رسوله.. وعندما تتملك مثل هذه المعـاني نفسية العامل فإنه "يستحضر" من خلـوص النيـة وصـدق العزيمة وصفاء القلب ما يستحضره عند العبـادة.. وعندئـذ يكون الإتقان والإحسان والحرص على الأداء الأمثل وتحقيق الكفاية الإنتاجية وحسن استثمار الوقت والمواد.. الخ.. نتيجة طبيعية لمثل هذه المشاعر العميقـة وللمحفـزات الإيمانيـة والنفسية التي تفوق بمراحـل – حتـى وإن لـم تـرفض – المحفزات الأخرى الإيجابية والسلبية من زيادة في الأجر أو تهديد بالعقاب أو تشديد للمراقبة. لان الأجر النقدي هو مـن وجهة نظر العامل المسلم جزء مما يظفر به لقاء العمل.. أما الجزء الثاني فهو رضا النفس وإشباع الشخصية وحمـد ا وشكره على ما قدره عليه من عمل وما أتاحه له من مساهمة في بناء المجتمع ومساعدة إخوانه على الحياة والتقرب إليـه بذلك   يوْم لا ينْفَع مالٌ ولا بنُون   "[1]

(١) انظر كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص١١٢.



قد يقول بعض الناس إننا لا نلحظ أبدا في حياتنا الراهنة مثل هذا الضمير المهني الإسلامي. وقـد لا تكـون هنـاك صورة أبشع من صور الاستغلال في الأداء التي يمارسـها سواقو التاكسي أو جزارو الجمعية التعاونية في القاهرة حيث تتضافر الغطرسة وسوء الخدمة مع الاستغلال المالي البشـع بحيث يكاد يكون عمل هؤلاء سرقة صريحة "عيني عينـك". وقد يكون تسعة أعشار هؤلاء مسلمين فكيـف لـم يتحـرك ضمير واحد منهم؟.. الرد أن هؤلاء مسلمون بالاسم. فكـل إسلامهم أن أسماءهم أحمد أو محمد الخ.. والذي لديه وعـي إسلامي منهم – فإن هذا الوعي متقوقع في العبادة لا يمكـن أن يخرج منها إلى الحياة بفعل سوء الفهم المتراكم قرونا بعد قرون. وهناك جهل مطبق بالمعـاملات الإسـلامية وآداب ومبادئ العمل الإسلامي لم يتحرك أحد لزحزحته وتقاعسـت عن ذلك أجهزة الدعوة والإرشاد الرسـمية، وعزفـت عـن معالجته الهيئات الإسلامية وأجهزة الثقافة العمالية والمنظمات النقابية التي لها علاقة مباشرة بالأمر. وقد عايشنا هذه وتلك معايشة فعالة لأكثر من ثلاثين عاما. ولم نلحظ أن أي نقابـة عنيت بهذه الموضوعات ونظمت دورات ودراسات لتوعيـة

أعضائها بآداب المهنة وأخلاقياتها وعلى النقيض فقد حـدث سنة **١٩٨١** أزمة بين مضيفي شركة مصر للطيران وإدارة الشركة عندما رفض هؤلاء بيع الخمور داخـل الطـائرات. فوقف ممثل العمال في مجلـس الإدارة مـع الإدارة ضـد المضيفين، ولم تحرك النقابة ساكنا كأن الأمـر لا يعنيهـا!! واضطر المضيفون للالتجاء إلى القضاء، وهو الملاذ الأخير للإنتصاف. فأصدر حكما كان صفعة لمجلس الإدارة نصـير الخمور، وللنقابة اللاهية.. أما مؤسسة الثقافة العمالية فإنها لا تقرب الإسلام إلا من خلال محاضرة قد تضعها في البرنامج العام عن "القيم الروحية" أشبه بالوعظ والإرشاد. وقد أجرت جريدة الأهرام سلسلة من الأحاديث والندوات عن الممرضات ومشكلة التمريض في صيف **١٩٨١**، ولم يرد في أي منهـا ولو مجرد إشارة إلى الوازع الديني وما يمكن أن يقـوم بـه الإيمان الإسلامي في تقويم هذه المهنة وصلاح حالها. ومهنة التمريض أساسا قامت في حضانة الأديار والكنيسـة وكـان الإيمان المسيحي هو الذي تغلب على صعوبات ومضـايقات المهنة. فالإسلام غائـب تمامـا عـن أذهـان الإنتلجنسـيا المصرية.. هذا فضلا عن الفساد المدوي من الحكام وإهدار

كل القيم والمبادئ الإسلامية فالإسلام لم يعد لكثير من هؤلاء المفخرة، والملاذ، والإلهام، ولكنه الخصم والعـدو، أو هـو القاضي الذي يصمهم بالخيانة والانحراف.. فيكـف يمكـن للأخلاقيات الإسلامية أن تظهر وسط مغارات اللصـوص.. هذه..

ومن المهم أن نوضح أن أخلاقيات العمل التي تنبثق من اعتباره قربى إلى ا لا تخرج منه عناصر الربح الخاص أو إشباع الشخصية أو جماليات العمل، ومباهجه. فلو حدث هذا لما كان هناك فرق ما بين القربى إلى ا بالعمل، والقربـى إلى ا بمختلف شعائر العبادة من صلاة أو صيام. إن اعتبار العمل قربى إلى ا إنما يبعد عنه عناصر الشـر والـدنس والاستغلال والتلفيق والكذب كما أنه يخضع نـوازع الـربح والكسب والطموح للحدود التي وضعها الإسلام بحيث تـؤتي خيرها وتبعد شرها.



والمنبع الثاني لأخلاقيات العمل في الإسلام **ما وضـعه الإسلام صراحة من قواعد ومبادئ لتحقيق هذه الأخلاقيـة.** فقد حرم الإسلام كل صور الكسب والممارسات التي تقـوم

على دعارة أو خمر أو قمار أو استغلال أو غش أو غرر أو احتكار أو إكراه أو ربا.. وفي مقابل هـذا أوجـب الاتقـان والإحسان والأمانة. وانسحبت هذه كلها ليس فحسـب علـى الإنسان ولكن **على الجماد والحيوان.** لأن أخلاقية العمل في الإسلام "مبدئية" فهي تسري على الجميع. وإذا كانت منظمة العمل الدولية قد حددت في إحدى اتفاقياتها الحد الأقصى لما يمكن أن يكلف حمّال بحمله، فإن الإسلام قد حدد هذا بالنسبة للحيوان. فروى ابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبد العزيز رضي ا عنه – أنه نهى عن اركاض الفرس إلا لحاجة وأنه كتب إلى صاحب السكك أن لا يلجموا حيوانا بلجام ثقيل ولا ينخس بمقرعة في أسفله. وكتب إلى حبان بمصر "بلغني أن بمصر إبل نقالات يحمل البعير منها ألف رطل، فـإذا أتـاك كتابي هذا فلا أعرف أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل".. وحتى في الفترة المتأخرة من الفكر الإسلامي عندما أطبقت عليه الغشاوات والظلمات نجد التاج السبكي (المتوفي سنة **٧٧١**هـ) يذكر بين واجبات البريدية الـذين يحملـون رسائل الملك وكتبه : "وحق على كل بريدي ألا يجهد فرسه

بل يسوقها بقدر طاقتها وقد كثر منهم سوق الخيول الســوق المزعج بحيث تهلك تحتهم أفما علموا أنها من خلق ا ".

وكان من واجبات المحتسب ملاحظة الرفق بـالحيوان فكان عليه أن يأخذ أرباب البهائم بعلوفتها إذا قصروا وأن لا يستعملوها فيما لا تطيق وعلى المحتسب أن يـأمر جلابـي الحطب والتبن وغيرهم إذا وقفوا في العـراص أن يضـعوا الأحمال من على ظهور الدواب لأنها إذا وقفـت والأحمـال عليها ضرتها، وكان في ذلك تعذيب لها وقد نهـي الرسـول عن تعذيب الحيوان لغير مأكله، ويذكر الشيزري في الحسبة على الجزار أن لا يجر الشاة برجلها وأن لا يذبح بسكين كالة لأن ذلك تعذيب للحيوان ويشترط على من يتعاطى البيطـرة أن يكون ذا علم بعلل الدواب وعلاجها وذا دين يصده عـن التهجم عليها بفصد أو قطع أو كي، فيؤدي ذلك إلى هلاكهـا أو عطبها لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجـد مـن المرض والألم.

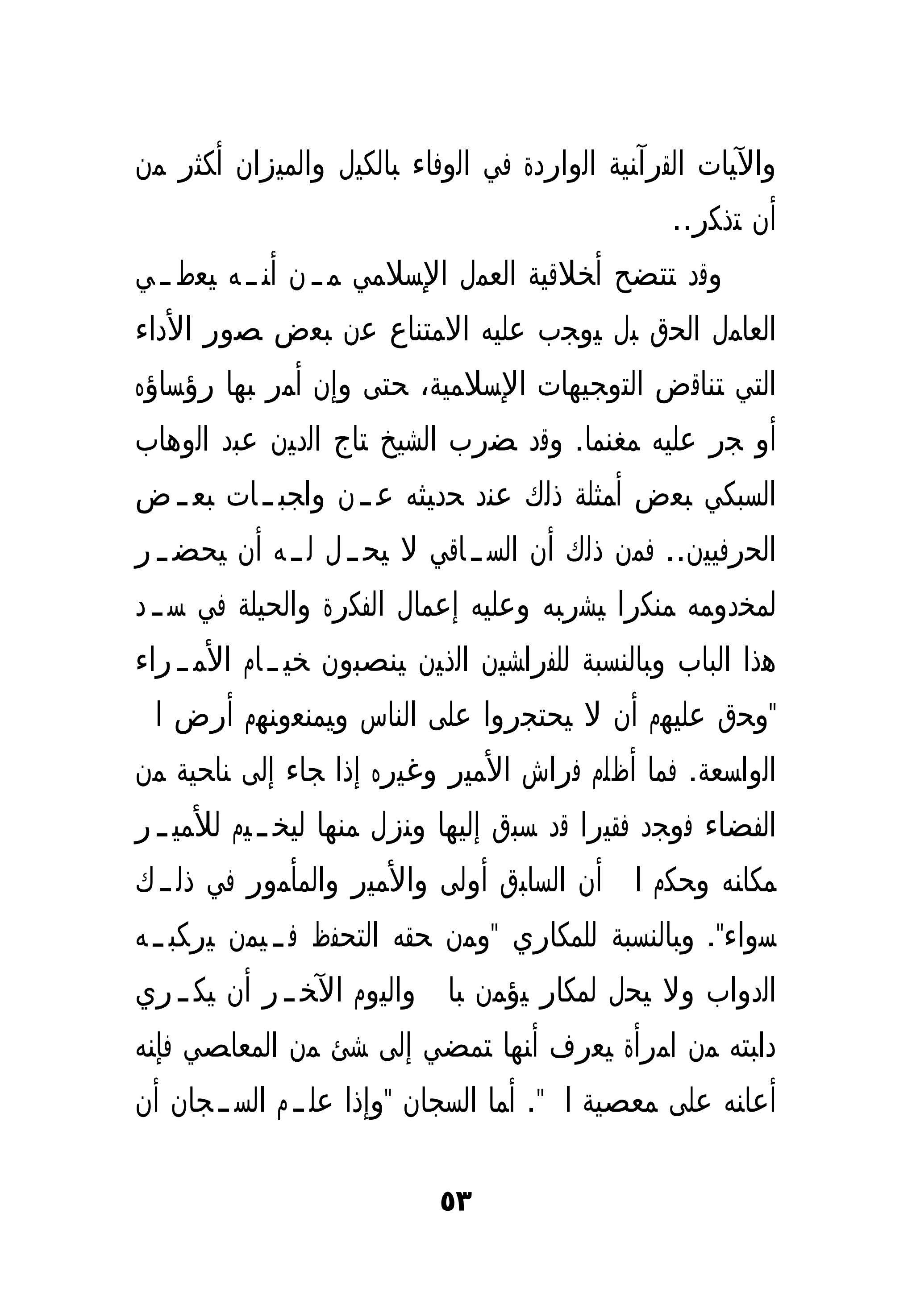
وهذه التوجيهات مبنية على أحاديث **تكررت روايتهـا عن النبي** ﷺ كما أن هناك أحاديث أخرى تمنع من كي ووشم الحيوان في الوجه واستمرار ركوب الـدواب وهـي واقفـة

واتخاذها منابر والنهي عن التحريش بين الطيور والحيوانات أو اتخاذها غرضا تصوب عليه النبال. وقد قضى النبـي ﷺ على عادة ربط الجمل بقبر صاحبه حتى يموت معه ونهـى عن قص معارف الخيل وأذنابها.

بل أن أخلاقيات العمل تنسحب على الجماد أيضا فنهى النبي ﷺ عن قلع الشجر أو عضده، ونهى عن الإسراف فـي استخدام المياه عند الوضوء "ولو كنت على نهر جار"...

فإذا كانت أخلاقية العمل في الإسلام قد أحاطـت هـذه الإحاطة بالتعامل مع الحيوان والجماد فهي بالنسبة لمختلـف مجالات النشاط العملي للإنسان أوسع وأكثـر وقـد شـملت مضمون العمل بحيث اسـتبعدت كـل صـور الممارسـات اللاأخلاقية، كما شملت الأداء فأوجبت الإتقـان والإحسـان والأمانة والوفاء بالوعد والعقود.. "إن ا يحـب إذا عمـل أحدكم عملا أن يتقنه".. "إن ا كتب الإحسان في كل شئ" ..

يا َأيها الِذين آمنُـوا َأوْفُـوا ِبـالْعقُودِ . "الصـلاة أمانـة والوضوء أمانة والوزن أمانة والكيـل أمانـة وأشـد ذلـك الودائع".. ِإن الله يْأمركُمْ َأنْ تُؤَدوا الأَماناَتِ ِإلَى َأهْلِها ...



والآيات القرآنية الواردة في الوفاء بالكيل والميزان أكثر من أن تذكر..

وقد تتضح أخلاقية العمل الإسلامي مـن أنـه يعطـي العامل الحق بل يوجب عليه الامتناع عن بعض صور الأداء التي تناقض التوجيهات الإسلامية، حتى وإن أمر بها رؤساؤه أو جر عليه مغنما. وقد ضرب الشيخ تاج الدين عبد الوهاب السبكي بعض أمثلة ذلك عند حديثه عـن واجبـات بعـض الحرفيين.. فمن ذلك أن السـاقي لا يحـل لـه أن يحضـر لمخدومه منكرا يشربه وعليه إعمال الفكرة والحيلة في سـد هذا الباب وبالنسبة للفراشين الذين ينصبون خيـام الأمـراء "وحق عليهم أن لا يحتجروا على الناس ويمنعونهم أرض ا   الواسعة. فما أظلم فراش الأمير وغيره إذا جاء إلى ناحية من الفضاء فوجد فقيرا قد سبق إليها ونزل منها ليخـيم للأميـر مكانه وحكم ا   أن السابق أولى والأمير والمأمور في ذلـك سواء". وبالنسبة للمكاري "ومن حقه التحفظ فـيمن يركبـه الدواب ولا يحل لمكار يؤمن با   واليوم الآخـر أن يكـري دابته من امرأة يعرف أنها تمضي إلى شئ من المعاصي فإنه أعانه على معصية ا ". أما السجان "وإذا علـم السـجان أن

المحبوس حبس بظلم كان عليه تمكينه من الفرار قدر استطاعته وإلا يكون شريكا لمن حبسه في الظلم". ورأى التاج السبكي أن "المشاعلي" وهو الذي يكلف بتنفيذ حكم الإعدام شنقا أو قتلا "متى أمر ولي الأمر مشاعليا بقتل إنسان بغير حق والمشاعلي يعلم أن المقتول مظلوم فالمشاعلي قاتل له يجب عليه القصاص وإن كان ولي الأمر أكرهه أو جعل أمره إكراها فالقصاص حينئذ عليهما جميعا عند الشافعي" [(١)]

فهذه النصوص توضح أن أخلاقية العمل في الفقه الإسلامي تجعله بعيدا كل البعد عن الصور الفاشية للعمل في المجتمع الرأسمالي أو في السلك الحكومي والإداري أو العسكري حيث لا تشترط أخلاقية أو يفرض فرضا الالتزام بالتعليمات.. أو تعد إطاعة الأوامر مبررا للإعفاء من المسئولية.

* * *

أما المصدر الثالث لأخلاقية العمل فإنه الأصول والمبادئ العامة للإسلام وما يستلهم منها. فعلى سبيل

(١) انظر الاستشهاد بهذه الأمثلة وغيرها في كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص ٨٨ – ٩١.

المثال عندما هدم الإسلام الحواجز الطبقية، ونـادى بوحـدة الإنسان ومساواة الأفراد وقاوم تلك الاعتزازات بـالجنس أو باللون أو بالوراثة أو الغنى فإنه **أعلـى مـن قيمـة العمـل اليدوي.** فرفع النبي ﷺ عاليا يد الصـحابي التـي مجلتهـا المسحاة من العمل قائلا: "هذه يد يحبها ا ورسـوله". بـل وجعل العمل اليدوي الأفضل فعندما سئل أي الكسب أطيـب قال: "عمل الرجل بيده.. وكل بيع مبرور".. وقال: "ما أكـل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه وأن نبي ا داود عليه السلام كان يأكل من عمل يديه".. وقـال: "إن ا يحب العبد المحترف" وقال: "من أمسى كالا من عمـل يـده أمس مغفورا له".. وعندما كان النبي وصحابته فـي سـفر وأرادوا إعداد الطعام وتكفل كل واحد بجانب من العمل قـل الرسول "وعليّ جمع الحطب" ورفض أن يكفيه صحابته قائلا إن ا يكره العبد المتميز" وكان في بيته يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب شاته ويعقل بعيره ويعلف ناضـحه ويقـم (أي يكنس) بيته. وهناك من صغار الموظفين من يجدون حرجـا في القيام بمثل هذه الأعمال ويرون ذلك عارا ولكـن النبـي العظيم لم يستنكف عن هذا ولم يستنكف أن يقـول للعبـاس

وبنيه وهم يسقون ويعملون في زمزم "اعملوا فإنكم على عمل صالح"، ثم قال: "لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه"، وأشار إلى عاتقه "البخاري". وقد كانت فاطمة الزهراء وزوجها على بن أبـي طالـب فـي ذروة "الأرسـتقراطية" الإسلامية القرشية النبوية.. ومع هذا فإنها جرت الرحى حتى أثرت في يدها. واستقت بالقربة حتى آثـرت فـي نحرهـا وكنست البيت حتى أغبرت ثيابها".. وعندما سألت أباهـا أن يعينها بخادم قال لها: "اتقي ا يا فاطمة وادي فريضة ربـك واعملي عمل أهلك". ونصحها بالدعاء.

وبينما كان أبو جهل يأسى وهو في سكرات الموت لأن الذي أصابه (عبد ا بن مسعود) من رعاة مكة ومستضعفيها ويقول له: "لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم". كـان الرسول نفسه يقول إنه رعى الغنم على قراريط لأهل مكة.

هذا مثال واحد لأثر أصل من الأصول الإسلامية علـى أخلاقيات العمل وهو يوضح لنا كيف أن المساواة التي جـاء بها الإسلام أعطت العمل اليدوي "أخلاقية" وتكريما بعـد أن كان في العهد القديم بأسره وسواء عند المصريين القدماء أو اليونان أو العرب أنفسهم في الجاهلية يصـطحب بالمهانـة.

وعند تدهور القيم الإسلامية في المجتمع الإسلامي نفسـه فقد العمل اليدوي هذا التكريم وعادت المهانة مـرة ثانيـة إليه.

ومع أن آثار الأصول الإسلامية على أخلاقيات العمـل يمكن أن تكون كثيرة كثرة هذه الأصـول إلا أن الاسـتفادة العظمى من هذه الأصول قد لا تكون على وجه التعيين – في مجال أخلاقيات العمل.. ولكن **في مجـال سياسـات العمـل وعلاقات العمل** وهذا هو ما سنعالجه في الفصل التالي.

إن الأهمية الكبرى لقضية العمل في العصـر الحـديث وأنها المحور الأعظم الذي تدور عليه الحياة اليومية للناس قاطبة، وأن الخلل والنقص والقصور فيها يثير الاضـطراب ويفاقم المشكلات.. تجعل لأخلاقيات العمل نصيبا بارزا فـي تحقيق الدور المطلوب.. والحيلولة دون أن يتطرق إلى عالم العمـل عناصـر الفسـاد والانحـراف. وقـد نـاشـد البروفيسـور تاوني **R. H. Tawney** فـي ختـام كتـابه "مجتمع الاستحواز". **" The Acquisive Society"** الكنيسة أن تعود لممارسة مسئولياتها الأدبية، وأن تكـافح ليسـتلهم العمل من إدارات ونقابات القيم والمثل المسيحية، وأكـد أن

هذا ليس خيالا، أو "يوتوبيا" ولكنه الحائل دون القلق والتوتر والفوضى.. وما تؤدي إلى هذه في النهاية من حروب.

الفصل الثالث

علاقات العمل

وتلاقي الحقوق بالواجبات

ظهر الإسلام قبل أن تحدث الثورة الصناعية في أوروبا بعشرة قرون تقريبا، أي قبل أن يظهر المصنع الآلي والقوة المحركة والرأسماليون والطبقة العاملة والحركـة النقابيـة، فضلا عن أن جزيرة العرب كانت صحراء لـم تقـم بهـا حضارة زراعية أو صناعية كالتي قامت في مصر أو العراق وكان النشاط الاقتصادي البارز شيئا ما فيها هـو التجـارة والرعى. ومن هنا فلم يتضمن القرآن أو السـنة نصوصـا صريحة، ومحددة عن علاقات صناعية بالمعنى الذي نفهمـه الآن ما بين العمال وأصحاب الأعمـال، ولكننـا مـع هـذا نستطيع أن نتوصل إلى هذه الخطوط من أصلين أولهما المبدأ الرئيسي **عن أن العمل واجب أولا، وعن هذا الواجب ينبـع الحق،** وما يستتبعه هذا المنطق من آثار علـى العلاقـات. والثاني ما يمكن قياسه من العلاقات التي كانت تحكم فئتـي

قوة العمل المأجور الموجودة وقتئذ، وهما الخـدم والرقيـق وكذلك بعض الأحكام الخاصة بالتجارة التـي تبلـور فيهـا النشاط الاقتصادي تقريبا في الجزيرة العربية عنـد ظهـور الإسلام، واستنباط الأحكام المطلوبة من الأصول والمبـادئ العامة التي استهدفها الإسلام لصلاح المجتمع، وقد نجد عند قراءة القرآن، ومعاني علاقات العمل ماثلة في الـذهن مـا يمكن اعتباره أساسا لعلاقات صناعية إسلامية كالذي حـدث عند تفسيرنا للآية **٢٨٢** من سورة البقرة – وهي آية الدْين – تفسيرا يجسد الاتفاقيات الجماعية في العصر الحديث دون أي افتيات أو تطويع للآية.[١]

- **والأصل الأول من هذين ألا وهـو أن العمـل فـي الإسلام واجب** مشتق من أن القرآن الكريم والسـنة النبويـة يوجبان إيجابا العمل على كل مسلم، ويمليانه ويحـددان لـه طبيعته ونطاقه وأداءه، ثم لا يكتفيان بذلك، بل همـا أيضـا يوجبان عليه اجتناب أنماط معينة من الأعمـال، وأسـاليب معينة من الأداء بحيث يشمل الوجوب النـاحيتين الإيجابيـة والسلبية.

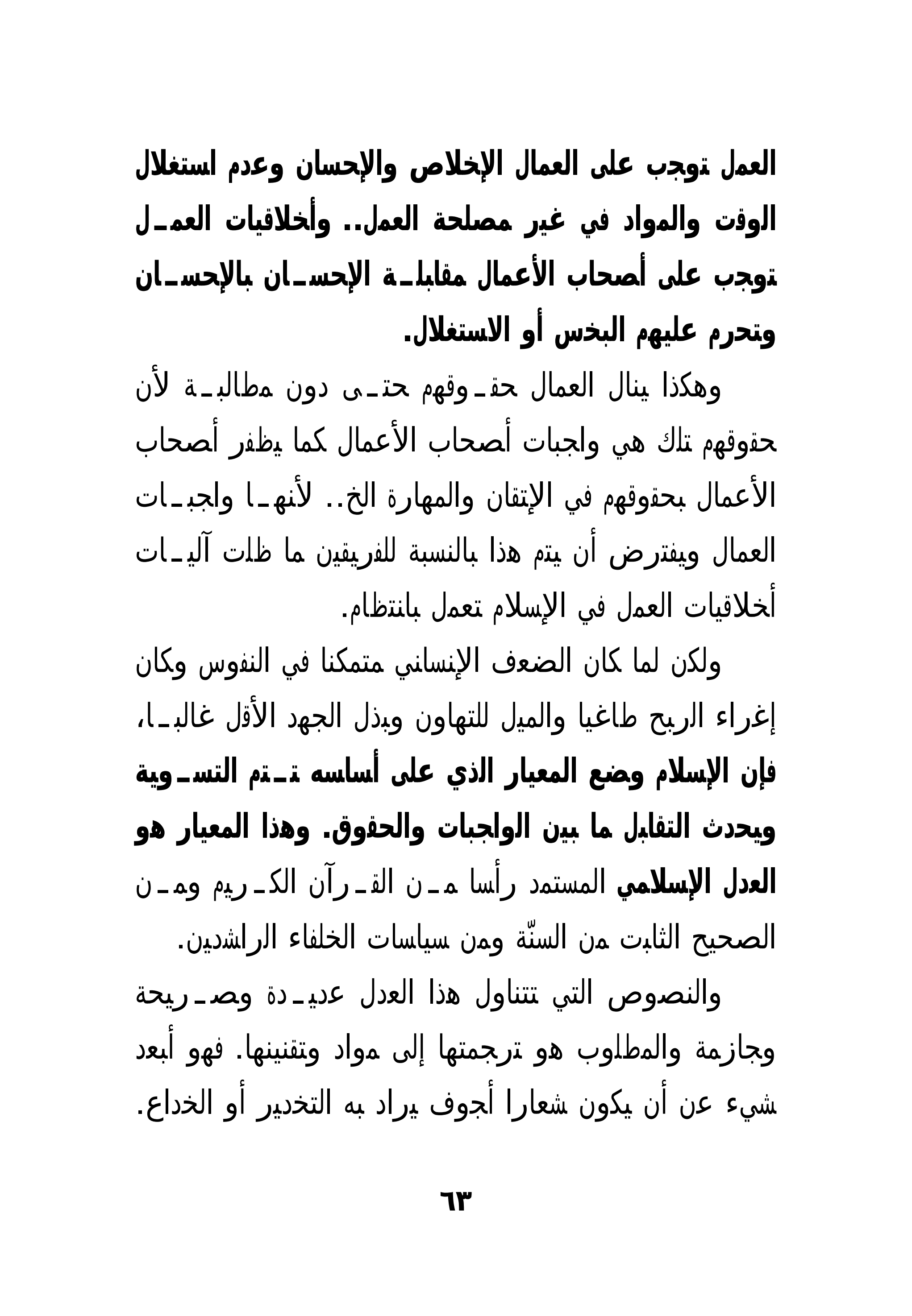
(١) **انظر هذا التفسير في كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" الصفحات ٧٦- ٨١.**

وهذا المنطلق – منطلق الوجوب – يختلف تمامـا عـن منطلق العمل في المجتمعات الدنيوية التي لا تلتزم بتوجيـه الهي إذ يكون العمل فيها بالنسبة لعامة الناس مجرد وسـيلة لاكتساب الرزق ("أكل عيش")، ويتركز الاهتمام على الحقوق ومدى ما يمكن الوصول إليـه والحصـول عليـه وتكـون الواجبات تبعا للحقوق ("على قد فلوسهم")، وتخضع وسـائل الأداء لطرق المراقبة والمحفزات المادية ويتحكم في سياسات العمل ما يسمونه "سوق العمل" وآلياته ("ميكانزم") دون النظر إلى أخلاقيات تحكم هذا السوق بينما يكون العمل لدى القلـة المميزة مجرد وسيلة لكسب المال أو إنفاقه دون نظـر إلـى أخلاقيات تحكمه فيمكن أن يأتي عن طريق استغلال حروب أو أزمات أو خداع ويمكن أن ينفق على الاستمتاع والإثـارة والبذخ والسفه.

ومن ناحية أخرى فإن الإسلام عندما يوجب العمل على الناس فإنه يعفي الدولة من أن تكون محتكرة توريد العمـل، سواء أكان ذلك عن طريق تملك الدولة لوسائل الإنتاج (الذي يطلق عليه خطأ التأميم).. أو عن طريق إيقاع مسئولية تعيين الخريجين على وزارة القوى العاملة تبعا لمـا تضـعه مـن

قواعد، فهذا أو ذاك بعيد عن سياسة العمل الإسلامي وروحه وجوهر نظامه الاجتماعي والاقتصادي والسياسـي.. لأنـه يجرد الأفراد من الحرية والإرادة والتصرف في مستقبلهم بما يشاءون ولأنه يكثف قوة الدولة على حساب الشعب بحيـث تصبح الدولة كما لو كانت هي ("الرزاق الوحيد") وما دامت هي الرزاق الوحيد فإنها تستطيع أن تحجب رزقهـا عمـن تغضب عليه من معارضين أو مخالفين ويصبح هذا الاحتمال سلاحا فعّالا في يد الدولة لإخضاع الشـعب وحملـه علـى الإذعان والطاعة، وشيئا فشيئا يصبح الناس نوعا من رقيـق الدولة ويفقدون حريتهم وكرامتهم وأصالتهم، ولا قيمة لشيء بعد هذا.

ولما كانت الواجبات الإسلامية (التي يدخل فيها العمل) ذات صفة شاملة ومطلقـة وتوجـه للنـاس عامـة ودون استثناء وكانت طبيعة العمل وأخلاقياته مبدئية وواحـدة لا تختلف فإن وجوب العمل لا يقتصر علـى العمـال ولكنـه ينسحب على أصحاب الأعمال والدولة. فالعمل بالنسبة لهم جميعا - واجب له أخلاقياته ومبدئيته والنتيجـة أن يحـدث تلاق يجعل واجبات فريق هى حقوق فريق آخر. فأخلاقيات



العمل تتوجب على العمال الإخلاص والإحسان وعدم استغلال الوقت والمواد في غير مصلحة العمل.. وأخلاقيات العمـل تتوجب على أصحاب الأعمال مقابلـة الإحسـان بالإحسـان وتحرم عليهم البخس أو الاستغلال.

وهكذا ينال العمال حقـوقهم حتـى دون مطالبـة لأن حقوقهم تلك هي واجبات أصحاب الأعمال كما يظفر أصحاب الأعمال بحقوقهم في الإتقان والمهارة الخ.. لأنهـا واجبـات العمال ويفترض أن يتم هذا بالنسبة للفريقين ما ظلت آليـات أخلاقيات العمل في الإسلام تعمل بانتظام.

ولكن لما كان الضعف الإنساني متمكنا في النفوس وكان إغراء الربح طاغيا والميل للتهاون وبذل الجهد الأقل غالبـا، **فإن الإسلام وضع المعيار الذي على أساسه تـتم التسـوية ويحدث التقابل ما بين الواجبات والحقوق. وهذا المعيار هو العدل الإسلامي** المستمد رأسا مـن القـرآن الكـريم ومـن الصحيح الثابت من السنّة ومن سياسات الخلفاء الراشدين.

والنصوص التي تتناول هذا العدل عديـدة وصـريحة وجازمة والمطلوب هو ترجمتها إلى مواد وتقنينها. فهو أبعد شيء عن أن يكون شعارا أجوف يراد به التخدير أو الخداع.

انه قواعد عملية وسوابق فعلية وهو بعد هذا روح الإسـلام والطابع الرئيسي والعام له.

والخصيصة التي يتّسم بها العدل الإسلامي ويتميز بهـا عن دعاوي العدل الأخرى هي أنه موضوعي فلـم يضـعه أصحاب الأعمال ولم تضعه الحكومة بل ولم يضعه العمـال ولكن ا تعالى هو الذي قرره في كتابه وبالوحي إلى نبيـه. ومن هنا فلا يمكن الطعن فيه بدعوى الذاتية التي أفسدت كل صور العدل المزعومة التي وضعها ويدّعيها طـرف مـن الأطراف.

ولما كان الجميع ينطلقون من نقطة واحدة هي العمـل المفروض والمحكوم بأخلاقيات مبدئية واحدة ويسـتهدفون غايات محكومة أيضا بالأخلاقيات السابقة نفسها فإن النتيجة أن المجتمع يسير في اتجاه واحد. العامل يسير، وصـاحب العمل يسير، والدولة تسير، والجميع يكسب من هذا السـير تبعا لقواعد العدل الإسلامي ويتم هـذا بنعومـة واتسـاق وتنحسم شأفة التناقضات والصراعات التي تأتي من اختلاف المنطلقات وتعارض الغايات وانعدام الأخلاقيات الواحدة.

وبهذا يتحقق السلام الاجتماعي والتنمية الاقتصادية في وقت واحد وبأفضل ما يتصور.

ولا يتسع المجال للإسهاب في إيضاح تفاصيل واجبات الجميع (التي يصبح بعضها حقوقا لآخرين) ولكن يمكن القول بصفة عامة أن كل ما يدخل في إتقان العمل والاقتصاد فـي الوقت والموارد بحيث يتسعا لأكبر إنتاج ممكن مما يدخل في واجبات العامل. وأن راحته والبعد عن أي صورة للإرهـاق أو الاستغلال وضرورة احترام كرامة العامل ومنحه المقابل العادل، كل هذا يدخل في واجبات صاحب العمل، وأن إعداد البيئة المناسبة وتهيئة المناخ العام وإتاحة فـرص التـدريب واكتساب المهارات وتوجيه الاقتصاد والإنتاج وجهة إسلامية وتصحيح الخلل والانحراف في المسار مما يدخل في واجبات الدولة الإسلامية وتصبح بالتالي حقوقا للمـواطنين تجاههـا وهي في كل هذا محكومة بأخلاقيات العمل وتحقيق العـدل الإسلامي.

والالتزام بهذه الواجبات وتطبيقها يتطلب تغييرا في رسم السياسة الاقتصادية وتحديد ظروف وشروط وعلاقات العمل.

وقد يقتضي الأمر إشارة خاصة إلى قضـية الأجـور، فالأجور قد لا تعني في المجتمع الرأسمالي إلا أرقامـا فـي الميزانية وبندا من بنود التكاليف في المشروع، ولكنها فـي مجتمع إسلامي تنبض بالحياة وتمثل الطعام والشراب والسكن والكساء والتعليم والترفيه وتلك البسمة التي ترتسم على الشفاه والشعور بالرضا عند ضمان إشباع هذه الاحتياجات والأمن من كابوس الحاجة والضيق من هموم الديْـن: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَـوْفٍ﴾ "اللهم زدها نعمة واحفظها مـن الزوال".

وبالتالي فيجب أن تضمن الأجور هذه الحياة وأن تترجم هذه البنود إلى أرقام تمثل في مجموعهـا الأجـر القياسـي للعامل[1] الذي يكفل على الأقل الحياة الوسط للعامل (لا وكس ولا شطط).

وهذا **المعنى الإنساني للأجر** جزء من صميم المجتمـع الإسلامي الذي يقوم على التكافل وينظر إلى المسلمين علـى أنهم "كأسنان المشط يسعى بذمتهم أدناهم" أو اللبنات في البناء أو الأعضاء في الجسم، كما أنه جزء من أخلاقيات العمل.

---

(١) يجب ألا نخلط بين الأجر القياسي وبين الحد الأدنى للأجور والمفـروض أن يكون الأجر القياسي بين الحد الأدنى والحد الأعلى للأجور.

من هنا يجب أن توضع الأجور على أسس إنسـانية لا حسابية وإلا يسمح للعوامل الاقتصادية بأن تحيـف علـى الحقوق الإنسانية أو المستويات المعيشية – بل على العكس – يجب أن يكون على هذه العوامل الاقتصـادية أن تكيـف نفسها تبعا للمستويات الإنسانية.

ولكن هذا المعنى الإنساني قد يتباين مع ما تقضي بـه العدالة في قضية الأجور. فطبقا لقواعد العدالة يجب أن ينظر إلى الأجور من زاوية الإنتاج، فمن يعمل عملا مساويا لعمل آخر يفترض أن ينال أجرا مماثلا ومن يعمـل عمـلا أقـل يتقاضى أجرا أقل وهو ما يتفق مع فكرة انبثاق الحقوق مـن الواجبات. بيد أن هذا قد لا يؤدي بالضرورة إلـى تحقيـق المستوى المعيشي (الوسط) المنشود إذ قد يكون أحد العمـال متزوجا ووالدا لعدة أبناء وهي وقائع لا أثر لها فـي ناحيـة الإنتاجية وبالتالي الأجر. ومن هنا فيفترض أن يكمل الأجـر من بنود الرعاية الاجتماعية الإسلامية التي تكـون "الزكـاة" أبرز مصادرها وبهذا نجمع بين تحقيق العدالة والكفاية.

ويقارب هذا الجانب من جوانب قضية الأجـور نقطـة المشاركة في الربح. فنحن نرى أن الأصـول الاجتماعيـة

الاقتصادية للإسلام تؤيد هذا الاتجاه، فالإسلام ينظـر إلـى العمال والإدارة كشريكين مصالحهما واحدة ويعلي المعنـى الأخلاقي الاجتماعي على المعنى المادي والفردي.

* * *

- والأصل الثاني للتعرف على أحكام علاقـات العمـل هو، كما ذكرنا النصوص التي تحكم العلاقة ما بين الخـادم والسيد أو العبد والسيد، وهي عديدة، وصريحة، خاصة من السنة، وهي تحمي الخادم والعبد جسدا وروحا حماية كاملـة وتكفل له مستوى من المعاملة يكاد يرقى بـه إلـى مرتبـة المساواة بالسيد، وهو ما تقضي به الأحاديث النبوية التالية.

لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي - كلكم عبـاد ا ، وكـل نسائكم إماء ا - ولكن فتـاي وفتـاتي. ونهـى المملـوك والجارية أن يقولا ربي وربتي، ولكن سيدي وسيدتي.

وعن أبي مسعود البدري رضي ا عنه، قـال كنـت أضرب غلاما لي بالسوط فسمعت صوتا من خلفي يقول اعلم أبا مسعود، فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا منـي إذا هو رسول ا ﷺ فإذا هو يقول اعلم أبا مسعود أن ا تعالى أقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت لا أضرب مملوكا بعده

أبدا. وفي رواية، فقلت يا رسول ا هو حر لوجه ا تعالى فقال أما أنك لو لم تفعل للفحتك أو لمستك النار.

وعن زاذان وهو الكندي مولاهم الكوفي، قال أتيت ابن عمر وقد اعتق مملوكا له فأخذ من الأرض عـودا أو شـيئا فقال مالي فيه من الأجر ما يساوي هذا سمعت رسول ا ﷺ يقول من لطم مملوكا له أو ضربه فكفّارته أن يعتقه رواه أبو داود واللفظ له ورواه مسلم ولفظه قال من ضرب غلاما لـه حدا لم يأته أو لطمه فإن كفّارته أن يعتقه.

وعن معاوية بن سويد بن مقرن قال لطمت مولى لنـا فدعاه أبي وقال اقتص منه، فأنا معشر بني مقرن كنا سـبعة على عهد رسول ا ﷺ وليس لنا إلا خادم ةفلطمها رجل منا فقال رسول ا ﷺ اعتقوها قال إنه ليس لنا خادم غيرها قال فتخدمهم حتى يستغنوا، فإذا استغنوا فيعتقوها رواه مسلم وأبو داود واللفظ له والترمذي والنسائي.

وعن عمار بن ياسر رضي ا عنه قال قال لي رسول ا ﷺ من ضرب مملوكه ظلما قيد منه يـوم القيامـة رواه الطبراني ورواته ثقات.

وعن عائشة رضي ا عنها قالت جاء رجل فقعد بـين يدي رسول ا ﷺ فقال إن لي مملوكين يكذبونني ويخـونني ويعصونني واشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم فقال رسول ا ﷺ إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكـذبوك وعقابك إياهم بقدر ذنوبهم فإن كان كفافا لا اك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل فتنحـى الرجل وجعل يهتف ويبكي فقال له رسول ا ﷺ أمـا تقـرأ قول ا تعالى ونَضع الْموازِين الْقِسْطَ لِيوْمِ الْقِيامةِ فَلا تُظْلَم نَفْس شيْئًا وإِنْ كان مِثْقَالَ حبةٍ مِنْ خَرْدلٍ أَتيْنَا بِها وكَفَى بِنَـا حاسِبِين فقال الرجل يا رسول ا ما أجد لي ولهؤلاء خيرا من مفارقتهم أُشهدك أنهم أحرار.

وعن أم سلمة رضي ا عنها قالت كان رسـول ا ﷺ في بيتي وكان بيده سواك فدعا وصيفة له أو لها حتى استبان الغضب في وجهه وخرجت أم سلمة إلى الحجرات فوجـدت الوصيفة وهي تلعب ببهيمة فقالـت ألا أراك تلعبـين بهـذه البهيمة ورسول ا يدعوك فقالت والذي بعثك بـالحق مـا سمعتك فقال رسول ا ﷺ لولا خشية القود لأوجعتك بهـذا

السواك! رواه أحمد بأسانيد أحدها جيـد واللفـظ لـه ورواه الطبراني بنحوه.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي ا عنه قال جاء رجل مستصرخ إلى رسول ا [1] فقال جارية له يا رسول ا [2] فقال ويحك مالك قال شـرا.. ابصـر لسـيد جارية[3] فغار فجب مذاكيره فقال رسول ا ﷺ اذهب فأنت حر فقال يا رسول ا على من نصرتي قال نصرتك علـى كل مسلم أخرجه أبو داود (الجب القطع والمذاكير جمع ذكر على غير قياس) (تيسير الوصول).

وعن المعرور بن سويد قال رأيت أبا ذر وعليـه حلـة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال سمعت رسول ا ﷺ يقول هم إخوانكم وخولكم جعلهم ا تعالى تحت أيديكم فمـن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليـه أخرجه الخمسة إلا النسائي (الخول حشم الرجـل واتباعـه) (تيسير الوصول).

---

(١) هو روح بن دينار.
(٢) أي لسيده واسمه زنباع.
(٣) وفي ابن ماجة " قال سيدي رآني أقبل جارية له "

وعن علي رضي ا عنه قال كان آخر كلام النبـي ﷺ الصلاة اتقوا ا فيما ملكت أيمانكم رواه أبو داود وابن ماجة إلا أنه قال الصلاة، وما ملكت أيمانكم.. وروي بـن ماجـة وغيره عن أم سلمة قالت أن رسول ا ﷺ كان يقـول فـي مرضه الذي توفي فيه "الصلاة، وما ملكت أيمانكم" فمـا زال يقولها حتى ما يفيض لسانه.

وعن أبي هريرة قال رسول ا ﷺ ثلاثة أنا خصـمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حـرا فأكـل ثمنه ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولـم يعطـه أجـره (البخاري).

وعن عثمان رضي ا عنه قـال لا تكلفـوا الصـبيان الكسب فانكم متى كلفتموهم الكسب سرقوا، ولا تكلفوا الأمـة غير ذات الصنعة الكسب، فـانكم متـى كلفتموهـا كسـبت بفرجها، وعفوا إذ اعفكم ا وعليكم من المطاعم بما طـاب منها (أخرجه مالك).

اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه.

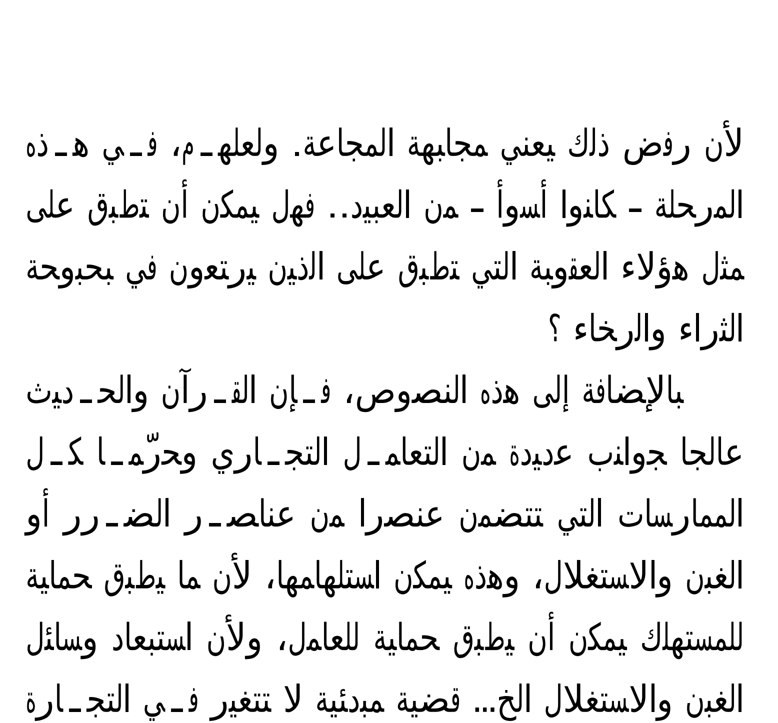
من استأجر أجيرا فليعلمه أجره.

وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ نهى عن استئجار الأجير حتى يبين له أجره.

* * *

فهذه النصوص عن جوانب عديدة من التعامل مع الخدم يمكن أن تستلهم عند تحديد جوانب مماثلة من علاقات العمل، مع ملاحظة أن الطابع المثالي في الحقوق هـو جـزء مـن أخلاقيات العمل الإسلامي، ويفترض أن يسـتتبعه عرفـان وتقدير من العمال وإقامة للعلاقات أو تسوية الخلافات فـي مناخ من السلام الاجتماعي. وعلى كل حال فما لـم يـدرك كله، لا يترك كله.

وقد يشبه هذا إلى حد ما أن الإسلام عندما وضع الحدود جعل العقوبة التي توقع على العبد نصف العقوبة التي توقـع على الحر، وليس من فرق بين هذا وذاك إلا انتقاص الحرية. فكان الإسلام جعل الحرية - ومدى توفرهـا أو انتقاصـها - عاملا مؤثرا عند إصدار الأحكام ؛ ومن المسلم به أن العمال وإن كانوا يتمتعون بالحرية القانونية - إلا أنهم قلما يتمتعون بالحرية الاقتصادية، وأنهم في مرحلة الرأسمالية الضـاربة.. كانوا مجبرين ومكرهين على الاستسلام لإرادة الرأسـمالي



لأن رفض ذلك يعني مجابهة المجاعة. ولعلهم، في هذه المرحلة - كانوا أسوأ - من العبيد.. فهل يمكن أن تطبق على مثل هؤلاء العقوبة التي تطبق على الذين يرتعون في بحبوحة الثراء والرخاء ؟

بالإضافة إلى هذه النصوص، فإن القرآن والحديث عالجا جوانب عديدة من التعامل التجاري وحرّما كل الممارسات التي تتضمن عنصرا من عناصر الضرر أو الغبن والاستغلال، وهذه يمكن استلهامها، لأن ما يطبق حماية للمستهلك يمكن أن يطبق حماية للعامل، ولأن استبعاد وسائل الغبن والاستغلال الخ... قضية مبدئية لا تتغير في التجارة عنها في الصناعة أو الخدمات أو أي نشاط آخر. ومن هنا فيفترض أن تكون هذه النصوص محل دراسة وعندئذ فيغلب أن توحي إلينا بمبادئ وقواعد لم يلتفت إليها القدماء من المفسرين أو الفقهاء الذين لم تعرض لهم مشاكل العصر.

وكما سبق وأشرنا، فإن الآية **٢٨٢** من سورة البقرة التي عالجت الدَيْن إلى أجل مسمّى، وضرورة الكتابة، والاشهاد الخ... يمكن أن تنسحب على العقود ذات الالتزام المؤجّل، وقد تنبه إلى ذلك المرحوم **الشهيد عبد القادر عودة**

بصفة عامة، في كتابه "**التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي**" وعالجنا تفسير الآية في كتابنا "**الإسلام والحركة النقابية**" بحيث ظهر أن الآية تكاد تكون تجسيما للحكم في "العقود الجماعية" التي تعقدها النقابات باسم العمال، وتعد محور العمل النقابي في المجتمعات ذات الاقتصاد الحر..[1] بل وأثبتنا أن العقود المتبعة حاليا في معظم الدول تخالف نصوص الآية.

وهناك نصوص في القرآن والحديث يمكن أن تعد أصولا تشريعية يستند إليها في تأصيل كثير من الأحكام مثل "المؤمنون عدول يسعى بذمتهم أدناهم"، "لا ضرر ولا ضرار".. ولا تَزِر وازرةٌ وِزْر أُخْرى ، وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها فَمنْ عفَا وَأصْلَح فَأَجْره علَى اللهِ الخ...

* * *

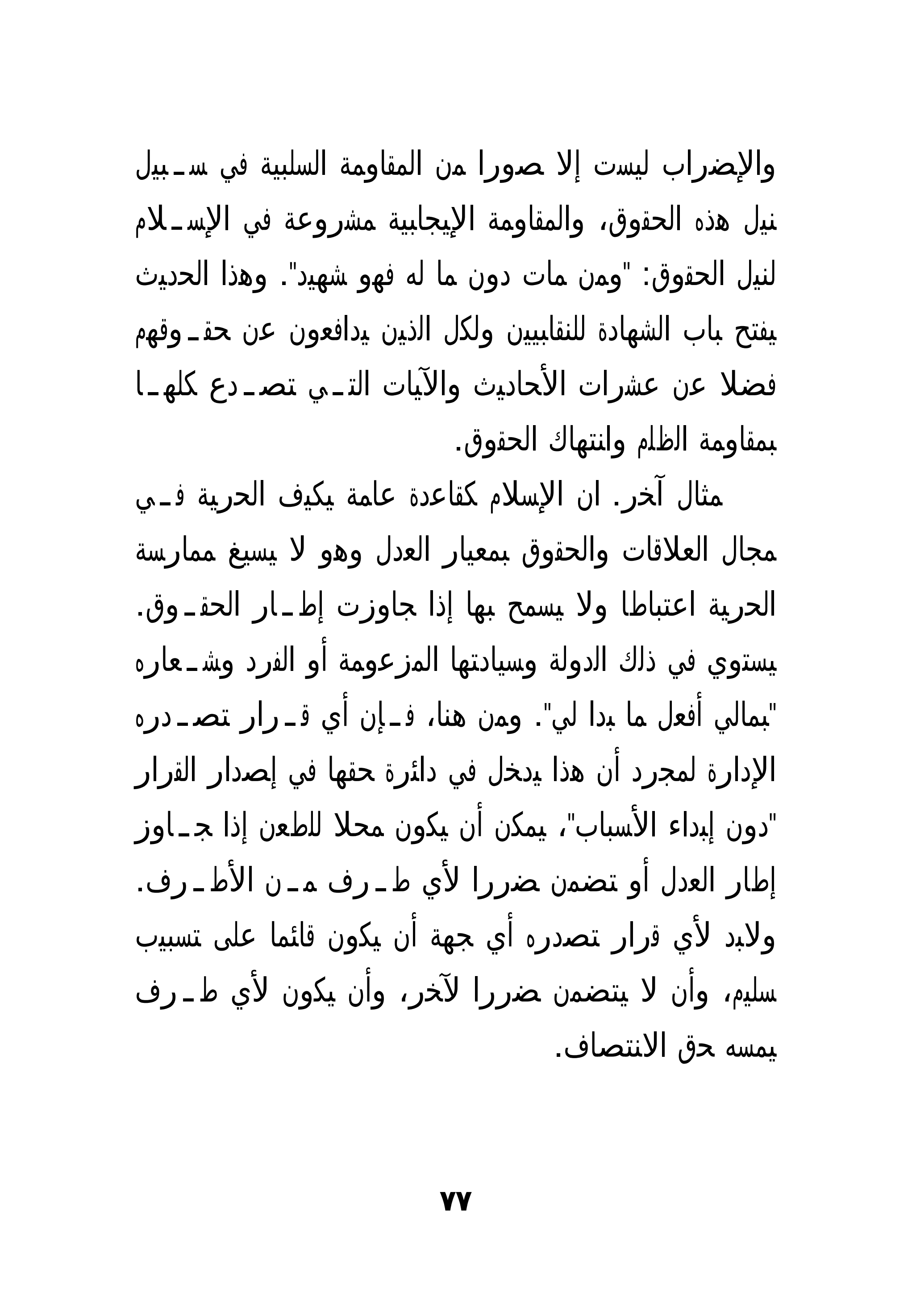
ويبقى بعد هذا المصدر الأعظم لاستلهام قواعد علاقات وسياسات العمل في الإسلام، ألا وهو مقاصد الشريعة وروح الإسلام والأهداف العظمى التي من أجلها أنزله ا تعالى

---

(١) انظر هذه المعالجة في كتابنا الإسلام والحركة النقابية، الصفحات ٧٦ – ٨١.

للناس ليسود القسط والعدل، ولإنقاذ الناس من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة.. ومن عبادة الطاغوت والحكام والأوثـان إلى عبادة ا الرحيم الرحمن ألخ... وهذا المصدر على أنـه أعظم المصادر فإنه لم يلْمس لأن معالجته تفترض الاجتهـاد وإنعام النظر واستخلاص الأحكام.. الخ. وقد تقاعست همـم فقهاء المسلمين عن ذلك ورضوا أن يستلخص الأحكام لهـم أسلاف مضى عليهم عشرة قرون.

وعلى سبيل المثال فنحن إذا طلبنا إشارات عن "النقابة" في كتب الفقه، أو في السنة، أو حتى فى القرآن فقد لا نجـد (حتى وإن جاء ذكر "النقيب" في القرآن). ومن الطبيعي أن لا نجد للنقابات ذكرا لأن النقابات إنما ظهرت منذ ثلاثة قـرون كرد فعل للاستغلال الرأسمالي، الصناعي ولكننا نسـتطيع - بكل اطمئنان - أن نقطع بأن النقابات تنظيم لا يتعارض مـع الإسلام - بل هو يتفق معه. لأن النقابات من ناحية الشـكل تنظيم جماعي، والجماعة مفضلة في الإسـلام علـى الفـرد ولأنها من ناحيـة الأهـداف تسـتهدف العـدل وإنصـاف المستضعفين ونيلهم لحقوقهم وهـذه مـن صـميم أهـداف الإسلام..، ولأن وسائلها حتى عندما تصل إلـى المقاطعـة



والإضراب ليست إلا صورا من المقاومة السلبية في سـبيل نيل هذه الحقوق، والمقاومة الإيجابية مشروعة في الإسـلام لنيل الحقوق: "ومن مات دون ما له فهو شهيد". وهذا الحديث يفتح باب الشهادة للنقابيين ولكل الذين يدافعون عن حقـوقهم فضلا عن عشرات الأحاديث والآيات التـي تصـدع كلهـا بمقاومة الظلم وانتهاك الحقوق.

مثال آخر. ان الإسلام كقاعدة عامة يكيف الحرية فـي مجال العلاقات والحقوق بمعيار العدل وهو لا يسيغ ممارسة الحرية اعتباطا ولا يسمح بها إذا جاوزت إطـار الحقـوق. يستوي في ذلك الدولة وسيادتها المزعومة أو الفرد وشـعاره "بمالي أفعل ما بدا لي". ومن هنا، فـإن أي قـرار تصـدره الإدارة لمجرد أن هذا يدخل في دائرة حقها في إصدار القرار "دون إبداء الأسباب"، يمكن أن يكون محلا للطعن إذا جـاوز إطار العدل أو تضمن ضررا لأي طـرف مـن الأطـرف. ولابد لأي قرار تصدره أي جهة أن يكون قائما على تسبيب سليم، وأن لا يتضمن ضررا لآخر، وأن يكون لأي طـرف يمسه حق الانتصاف.

ولكن قد يكون أهم من هذا كلـه وأعـمّ عنـد تحديـد العلاقات، أن الإسلام قام أولا وقبل كل شيء لتحقيق العدل. وأن الفيصل في علاقات العمل ما بين العمـال وأصـحاب الأعمال والمستهلكين، يجب أن يكون العدل الإسلامي. وهذا يمثل منطلقا جديداً كل الجدة لبناء علاقـات العمـل. ففـي المجتمعات ذات الاقتصاد الحر تبني العلاقات الصناعية على أساس "تصادم" منطلق العمال.. مع منطلق أصحاب الأعمال. وقد تتدخل الحكومة لحماية المستهلك أو للحفاظ على الأمـن والاقتصاد القومي دون نجاح كبير. وفي المجتمع الشـيوعي تسود مشيئة الحزب الحاكم الذي لا معقب لإرادته. وهذه كلها منطلقات "ذاتية" أما المنطلق الإسلامي، فهو موضوعي يقوم على العدل الذي يفترض أن ينزل عليه ويلتزم به الجميـع. أصحاب العمل، والعمال، والحكومة. وهذه هي الإضافة التي يقدمها – باسم الإسلام – **الاتحاد الإسـلامي الـدولي للعمـل** ويرى فيها وحدها الحل لأزمـة النقابيـة فـي المجتمعـين الرأسمالي والشيوعي على سواء – وجلاها في عدد من كتبه ورسائله(١) وينص عليها دستوره.

---

(١) انظر كتابنا "أزمة النقابية" وكذلك "الإسلام والحركة النقابية".

الفصل الرابع

مضمون العمل

أصل القيمة وشمول الأداء

إذا كان العمل – كما ذكرنا فـي الفصـل الأول – هـو معيار الحساب ثوابا أو عقابا فما هي دلالة ذلـك فـي لغـة الاقتصاديين المحدثين؟ إن الدلالة التي يمكن أن تستمد مـن هذه الواقعة هي أن الإسلام يجعل العمل هو أصل القيمـة ... خاصة إذا أضفنا إلى هذه الحقيقة.. حقيقة أخـرى هـي أن الإسلام لا يعطي الجاه أو النسب أو الوراثة أو المظهر أيـة قيمة ولا يجعل لها عند الحساب وزنا. بـل إن الإسـلام لا يعطي المال في حد ذاته قيمة وما أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلادكُمْ بِالَتِي تُقَربكُمْ عِنْدنَا زلْفَى وإنما تنسب القيمة لطريقـة الحصـول على هذا المال والهدف منه.. ثم طريقة التصرف فيه. ففي المجتمع الرأسمالي يعد المـال الأصـل الأول الثمـين، أو "الرأس" ويطلق عليه مجمعا ومتراكما "رأس المـال" الـذي تدور عليه بقية الأصول.. وتبدأ به المشـروعات ويضـفي الاحترام والمنزلة الاجتماعية على صاحبه. فـالغني يحتـرم

لثروته حتى وإن حصل عليها بأحط الوسـائل – "فـالنقود لا رائحة لها" وحتى إن كان جاهلا، لأنـه يمكـن أن يسـتأجر العلماء... والفقير يزدري لفقره "حتى وإن كان عالما" فاضلا. ولكن الأمر يختلف في المجتمع الإسلامي فلا يمكن الحصول على مال إلا بفضل العمل[1].. ومن خلال وسائل مشروعة، ولا يجوز التصرف فيه إلا خلال قنوات مشروعة.. وهـذه القنوات من عمل وإخلاص وابتغاء الخدمة.. مع الاسـتمتاع المشروع.. هي ما تعطي المال أهميته، ومـا يسـتمد منهـا قيمته. أما المال في حد ذاته أو خارج هذه الأطر فلا يغنـي شيئا.

وما يغْنِي عنْه مالُه إِذَا تَردى ، ما أَغْنَـى عنـي مالِيه ، إِن الَّذِين كَفَروا لَـنْ تُغْنِـي عـنْهمْ أَمْـوالُهمْ ولا أَوْلادهمْ مِنْ اللهِ شَيْئًا .

وأشد من هذا كله صراحة الآية وَأَنْ لَيْس لِلإِنسان إِلا ما سعى إذ هي تنفي عن الإنسان إلا ما يسعى له ويقوم به – أي العمل.

---

١) ما عدا الميراث بالطبع وهو استثناء وعدالة توزيعه تفتته بين الورثة.

وتحريم الإسلام للربا.. وتحليله للبيع دليل آخر على أن العمل هو أصل القيمة، لأن الفرق الرئيسي بين الربا.. والبيع (أو مختلف صور النشاط المباح) هو أن المال في الحالة الأولى يكسب دون عمل يقوم به صاحبه.. وأنه في الحالة الثانية إنما يكسب بما يقوم به صاحبه من عمل. فافتقاد العمل في الربا من أهم أسباب التحريم..[1] واصطحاب العمل في البيع هو سبب التحليل، وما هذا إلا لأن العمل يمثل إضافة منشئة ويرتبط بالإنسان ويستهدف إثراء الحياة وإشباع الاحتياجات وتقديم الخدمات وتفريج المتاعب والكربات في حين يقترن الربا بالسلبية آونة.. والاستغلال آونة أخرى، ويعزز هذا أن الإسلام يحرم كسب مال دون بذل جهد مقابله "كخياط يتقبل ثوبا للخياطة بدينار فيعطيه لغيره ليخيطه بنصف دينار ويأخذ هو الفرق دون أن يساعده في عمله ودون أن يعطيه خيوطا أو أزرارا أو غير ذلك"[2]. ومثل

(١) هذا تكييف جديد لتحريم الربا خلاف ما يؤسس عليه التحريم عادة من استغلال وهو أعم من الاستغلال لأن الفائدة المصرفية التي تقدم للمودع قد ينتفي منها عناصر الاستغلال، وبالتالي يمكن تقبلها، ولكنها ترفض عندما يؤسس التحريم على أساس انتفاء العمل.

(٢) حاشية ابن عابدين. استشهد بها في بحث "الاحتراف وأثره في الفقه الإسلامي" د. محمد رواس قلعجي.

هذا الحكم يمكن أن يقضي على كل صـور "التعاقـد مـن الباطن" التي تتطفل على الإنتاج وتكسب دون القيـام بـأي عمل.

ويشبه تحريم الإسلام للربا تحريمه الاكتناز لأنه تعطيل عن "عمل" الذهب والفضة وقيامهما بدورهما كأداة للتعامـل وكذلك تحريمه "احتجان" الأرض لأنه تعطيل عن استخدامها واستثمارها بفكرة بيعها عند ارتفاع أسعار الأراضي، وأقوى من هذا إشارة الحديث إلى أن من "أحيا أرضا مواتا فهي له". فالحديث يشير إلى الأرض دون العمل باعتبارها "مواتا" ثـم يشير إلى العمل باعتباره "إحياء" للأرض، وبالتالي فإن مـن يقوم بهذا يصبح مالكا لها. وأخيرا فيمكن الإشارة إلى تحريم الإسلام للقُسامة. وهي أن يأخذ شخص مالا أو أجـرا لقـاء تشغيله آخرين. فهذا يستغل العمل دون أن يعمل هو.. كمـا يستغل المرابي المال دون أن يعمل هو، ونص الحديث "عن أبى سعيد الخدرى قال رسول ا إياكم والقسامة قلنـا ومـا القسامة قال الرجل يكون على فئام من الناس فيأخذ حظ هذا

وحظ هذا" أخرجه أبو داوود[1]. ونجد "القسامة" الحديثة فـي "متعهد توريد الأنفار" أو الكفيل في بعض الدول الإسـلامية. فهما معا يكسبان من عمل العمال - دون أن يعملا هما شيئا.

وفي كل هذه التحريمات فإن الإسلام يصدر عن أصـل واحد هو تحريمه للبطالة والاستغلال والكسـب دون عمـل واعتباره العمل أصل القيمة.

ولما كان العمل أصل القيمة، فإن الإسلام يفترض فـي الإنسان السوي وفي المجتمع السوي العمل. "قيمة كل امرئ ما يحسنه" و "إنما يقدس الإنسان عملـه."[2] وكـان كبـار الصحابة أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف الخ.. من أصحاب الحرف والمهن. ومع أن صحبة النبي ﷺ كانت أحب إليهم من أبصارهم وأسماعهم، فإنهم لم يروا أن ذلـك يوجب عليهم هجر أعمالهم فكانوا سحابة النهار في السـوق.

---

(١) أنظر تيسير الوصول ص١٤٥ الجزء الرابع (المكتبة التجاريـة) وطبـع بالمطبعة السلفية وقال محققه آخر الحديث القُسامة (بضم القاف) مـا يأخـذه القسام جريا على عاده السماسرة دون الرجوع إلى أجرة المثل.

(٢) جاء هذا التعبير البليغ على لسان سلمان الفارسي رضي ا عنه عنـدما كتب أبو الدرداء إليه "هم إلى الأرض المقدسة" فقـال سـلمان "إن الأرض لا تقدس أحدا "وإنما يقدس الإنسان عمله" في قصة طويلة – جاءت في تيسـير الوصول (ص٥٣ ج ٣).

وعندما ذكر عمر بن الخطاب بما لم يسمعه من النبـي قـال "ألهاني الصفق في الأسواق". ولم يعتمد المهاجرون على كرم الأنصار الذين كانوا على استعداد للنزول لهم عـن نصـف أموالهم، ولكنهم مارسوا حرفهم.. بل إن الأنبياء أنفسهم كانت لهم حرفهم المعروفة. فنوح كان نجارا وداود حداداً وإدريس نساجا وموسى راعيا.. كما كان محمد ﷺ راعيا وتاجرا وقال "ما بعث ا من نبي إلا رعى الغنم فقالوا حتى أنت يا رسول ا . قال نعم كنت أرعى على قراريط لأهل مكة".

ولم ير الإسلام أن "التوكل" ينافي العمل. فعندما أخبـر النبي ﷺ أصحابه بأنه ما من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو الجنة قالوا يا رسول ا أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فرد أعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كـان مـن أهـل السعادة فسييسر لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة ثم قرأ ﴿فَأَما مَنْ أَعْطَى واتقَى وصدقَ بِالْحسْنَى﴾ الآية.. (متفق عليه). فالنبي ﷺ يوضـح لهـم أن العمل هو سبيل هذا المصير، وعلى أساسه تحدد. فلا يتصور أن يكون هناك توكل دون عمل ومـن هنـا أيضـا وجـه الإعرابي "اعقلها وتوكل" فالتوكل لا ينفـي العمـل، ولكنـه

يتبعه. وحتى الحديث المشهور "لو أنكم تتوكلون على ا حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانـا" فإن ا تعالى لم يرزق الطير وهي جاثمة أو فـي وكناتهـا وأعشاشها، وكان عليها أن تغدو وتروح حتى يرزقها ا .

كذلك يتفق مع هذا - أي جعل الإسلام العمـل أصـلا للقيمة - كراهة الإسلام للبطالة وذمه للمسألة.

وقد شبه النبي ﷺ المسألة تشبيها مروعا حقيق بأن يكف صاحبها عنها إلى الأبد "لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقـى ا وليس بوجهه مزعة لحم" وقال "لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خيرا له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه" وهذا هو مـا طبقـه الرسول عندما جاءه رجل من الأنصار يسأله فقال له: "أمـا في بيتك شيء قال بلى حلس نلبس بعضه ونبسـط بعضـه وقعب نشرب فيه الماء قال آتني بهما فأتاه بهما فأخـذهما ﷺ بيده وقال من يشتري هذين فقال رجل أنا أخذهما بدرهم قال رسول ا ﷺ من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا فقال رجل أنا أخذهما بدرهمين فأعطاهما اياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما للأنصاري وقال اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر

بالآخر قدوما فأتني به فأتاه به فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده ثم قال له اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما ففعل. ثم جاءه وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما فقال له رسول الله ﷺ هذا خير لك من أن تجئ المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ان المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع أو لذي دم موجع" (أخرجه أبو داود وهذا لفظه والترمذي باختصار).

وقال النبي ﷺ أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفي الفارغ، والمكفي هو الذي يكفيه غيره مسألة معيشته والفارغ المتعطل الذي استمرأ الكسل والتعطل.

* * *

على أن المضمون الاقتصادي للعمل في الإسلام الذي يجعل العمل أصل القيمة ليس إلا جانبا من جوانب هذا المضمون. أما الجانب الآخر فهو شمول العمل الإسلامي لكافة صور العمل على نقيض المذهب السائد في الفكر الحديث الذي يحصر العمل في العمل "الاقتصادي" أو "العمالي" أو "الأجري" أو "النقابي". فالمضمون الإسلامي للعمل يغطي كل من "يعمل عملا صالحا" سواء كان موظفا

أو طالبا أو ربة بيت أو حرفيا أو تعاونيا أو متطوعا لعمـل خيري فكل هؤلاء يعدون "عمالا" ويدخل عملهم فـي إطـار العمل الإسلامي..

والتتبع التاريخي لدلالة كلمة "عمال" يوضح كيف أنهـا تدهورت مع تدهور المجتمع الإسلامي بعد ازدهـاره فتـرة النبوة والخلافة الراشدة التي كانت كلمة "عمال" فيها تطلـق على ولاة الأمصار والقائمين على الزكاة. ثم بدأت تتـدهور وتتقلص تدريجيا حتى كـادت تنحصـر فـي العمـل اليدوي[1]. ونحن في الاتحاد الإسلامي الدولي للعمـل نجـد عناء أي عناء في أن نفهم الناس أن كلمة "عمل" وعمـالا لا تقتصر في الإسلام على عمل الصناعة أو أعضاء النقابة أو أصحاب الياقات الزرقاء، ولكنها تضم كل فئات المجتمع التي تعمل عملا صالحا.

ويمكن أن نلحظ بدايات هذا التدهور في فهم دلالة كلمة العمل في كتابة بعض كتـاب القـرن الخـامس الهجـري

---

(١) وهذا يناقض ما ينتهي إليه تتبع دلالة الكلمـة (عمـال) فـي المجتمـع الأوروبي فقد نظر إليهم، في الثورة الصناعية كما لو كانوا حثالة المجتمع ثم أخذت الدلالة تتقدم وتتسع وتضم فئات جديدة من الكتبة والموظفين والمهنيين حتى كادت تشمل العاملين جميعا.

"كالماوردي" الذي تحدث عن الصناعة باعتبارها صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشـتركة متـأثرا بـالطبع بـالفهم الإسلامي الأولي الذي يعطي الكلمة معنى الشمول، ولكنـه - متأثرا ببدء التدهور - اعتبر أن صناعة "العمل" أحـط مـن صناعة الفكر رغم الأحاديث النبوية التي تعطي العمل اليدوي أفضلية.

وكلام الماوردي مع هذا له أهمية لأنه يصور لنا "عالم العمل" في ذهن فقيه يمثل عصره، ويكون من الخير أن ننقل النبذة كلها هنا:

"ثم أنه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصـلهم إلـى منافعهم من وجهين بمادة وكسب. فأما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها، وهي شيئان نبت نـام وحيـوان متناسل وقال ا تعالى وَأنه هو أَغْنَى وَأَقْنَى قـال أبـو صالح أغنى خلقه بالمال وأقنى جعل لهم أقنية وهي أصـول الأموال. وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة إلـى المـادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة وذلك من وجهين أحدهما تقلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة. وهذان همـا فـرع لوجهي المادة فصارت أسـباب المـواد المألوفـة وجهـات

المكاسب المعروفة من أربعة وجوه ثمـار زراعـة ونتـاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة. وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال سمعته يقول معايش الناس علـى أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة ومال فمن خرج عنهـا كان كلا عليها. وإذ قد تقررت أسباب المـواد بمـا ذكرنـاه فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز.

أما الأول من أسبابها وهي الزراعة فهـي مـادة أهـل الحضر وسكان الأمصار والمدن والاستمداد بها أعـم نفعـا وأوفى فرعا، ولذلك ضرب ا تعالى المثل بها فقال مثَـلُ الذِين ينفِقُون َأمْوالَهمْ ِفي سبِيل اللهِ كَمثَل حبةٍ َأنْبتَـتْ سـبْع سنَابِلَ ِفي كُل سنْبلَةٍ ِمائَةُ حبةٍ والله يضاعِفُ ِلمـنْ يشَـاء .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال "خير المال عين سـاهرة لعـين نائمة" وقال ﷺ "نعمت لكم النخلة تشرب من عـين خـرارة وتغرس في أرض خواره وقال ﷺ في النخل "هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل" وقال بعض السـلف خيـر المال عين خرارة في أرض خوارة تسهر إذا نمت وتشهد إذا غبت وتكون عقبا إذا مت. وروى هشام عـن عـروة عـن عائشة رضي ا عنها قال قال رسول ا ﷺ "التمسوا الرزق

في خبايا الأرض" يعني الزرع وحكى عن المعتضد أنه قـال رأيت على بن أبي طالب رضي ا عنه في المنام ينـاولني المسحاة وقال خذها فإنها مفاتيح خزائن الأرض، قال كسرى للموبذ ما قيمة تاجي هذا؟ فاطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة إلا أن تكون قطرة في نيسان فإنها تصلح من معايشـة الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك. ولقى عبد ا بن عبد الملك ابن شهاب الزهري فقال أدللني على مال أعالجه فأنشأ ابن شهاب يقول:

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها
لعلك يوما أن تجـاب فتـرزقا
فيؤتيـك مالا واسعا ذا متـانة
إذا ما مياه الأرض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما لـيس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير أن من فضـل الـزرع فلقرب مداه ووفور جداه، ومن فضل الشجر فلثبوت أصـله وتوالي ثمره.

وأما الثاني من أسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل الفلوات وسكان الخيام لأنهم لما لم تسـتقر بهـم دار، ولـم

تضمهم أمصار افتقروا إلى الأموال المتنقلة معهم ومالا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لأنه يستقل بالنقلة بنفسه ويستغني عن العلوفة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه من أهل الخيام أيسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم أكثر لوفور نسله واقتيات رسله إلهاما من ا لخلقه في تعديل المصالح فيهم وإرشادا لعباده في قسم النافع بينهم وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال "خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة" ومعنى قوله ﷺ مهرة مأمورة أي كثيرة النسل وفيها تأول الحسن وقتادة قوله "أمرنا مترفيها" أي كثرنا عددهم، وأما السكة المأبورة فهي النخلة المأبرة الحمل، وروي عن النبي ﷺ أنه قال في الغنم "سمنها معاش وصوفها رياش" وروي عن أبي طبيان أنه قال قال لي عمر بن الخطاب رضي ا عنه ما مالك يا أبا طبيان قال قلت عطائي الفان قال اتخذ من هذا الحرث والسائبات النتاج. وحكى أن امرأة أتت النبي ﷺ قال يا رسول ا إني اتخذت غنما ابتغي نسلها ورسلها وأنها لا تنمي فقال لها رسول ا ﷺ ما ألوانها قالت سود فقال لها

عفري. وهذا مثل قوله ﷺ في مناكح الآدميين اغتربـوا ولا تضووا.

أما الثالث من أسبابها وهي التجارة فهي فرع لمـادتي الزرع والنتاج فقد روي النبي ﷺ أنه قال تسعة أعشار الرزق في التجارة والحرث والباقي في السائبات وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار، وقد رغب عنه ذوو الأقدار وزهد فيه ذوو الأخطار والثاني تغلب بالمال بالأسفار، ونقلة إلى الأمصار فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطرا وأعظم غررا، فقـد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "ان المسـافر ومـ ـاله لعلـى قلـت[1]، إلا ما وقى ا " يعني على خطر وفي التوراة يـا ابن آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا.

أما الرابع من أسبابها وهو الصناعة فقـد يتعلـق بمـا مضى من الأسباب الثلاثة وتنقسم أقسامها ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لأن النـاس آلات للصناعة فأشرفهم نفسا متهيئ لأشرفها جنسا، كمـا أن

(١) في المصباح المنير "قلت قلتا من باب تعب هلك وتسمى المفاز مقلته بفتح الميم لأنها محل الهلاك، والقلت نقرة في الجبل يستنقع فيها المـاء والجمـع قلات مثل سهم وسهام" المؤلف.

أرذلهم نفسا متهيئ لأرذلها جنسا لأن الطبع يبعث على ما يلائمه، ويدعو إلى ما يجانسه وحكى أن الاسكندر لما أراد الخروج إلى أقاصي الأرض قال لارسطاطليس اخرج معي فقال قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال فما أصنع في عمالي خاصة قال انظر إلى من كان له عبيد فأحسن سياسهم فوله الجنود. ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطبع على ما أغناه عن كلفة التجربة. وأشرف الصناعات صناعة الفكر وأرذلها صناعة العمل لأن العمل نتيجة الفكر وتدبيره. فأما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين أحدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة من نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد أفردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جمعها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها، والثاني ما أدت إليه المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية وقد مضى في فصل العلم من كتابنا هذا باب أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه.

وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعي وعمل بهيمي. فالعمل الصناعي أعلاهما رتبة لأنه يحتاج إلى معاطاة في تعلمه ومعاناة في تصدره فصار بهذه النسبة من

المعلومات الفكرية والآخر إنما هو صناعة كد وآلـة مهنـة وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكثم بن صيفي لكل ساقطة لاقطـة، وكما قال المتلمس:

ولا يقيـم على ضيم يسام به

إلا الاذلان عير الحي والوتد

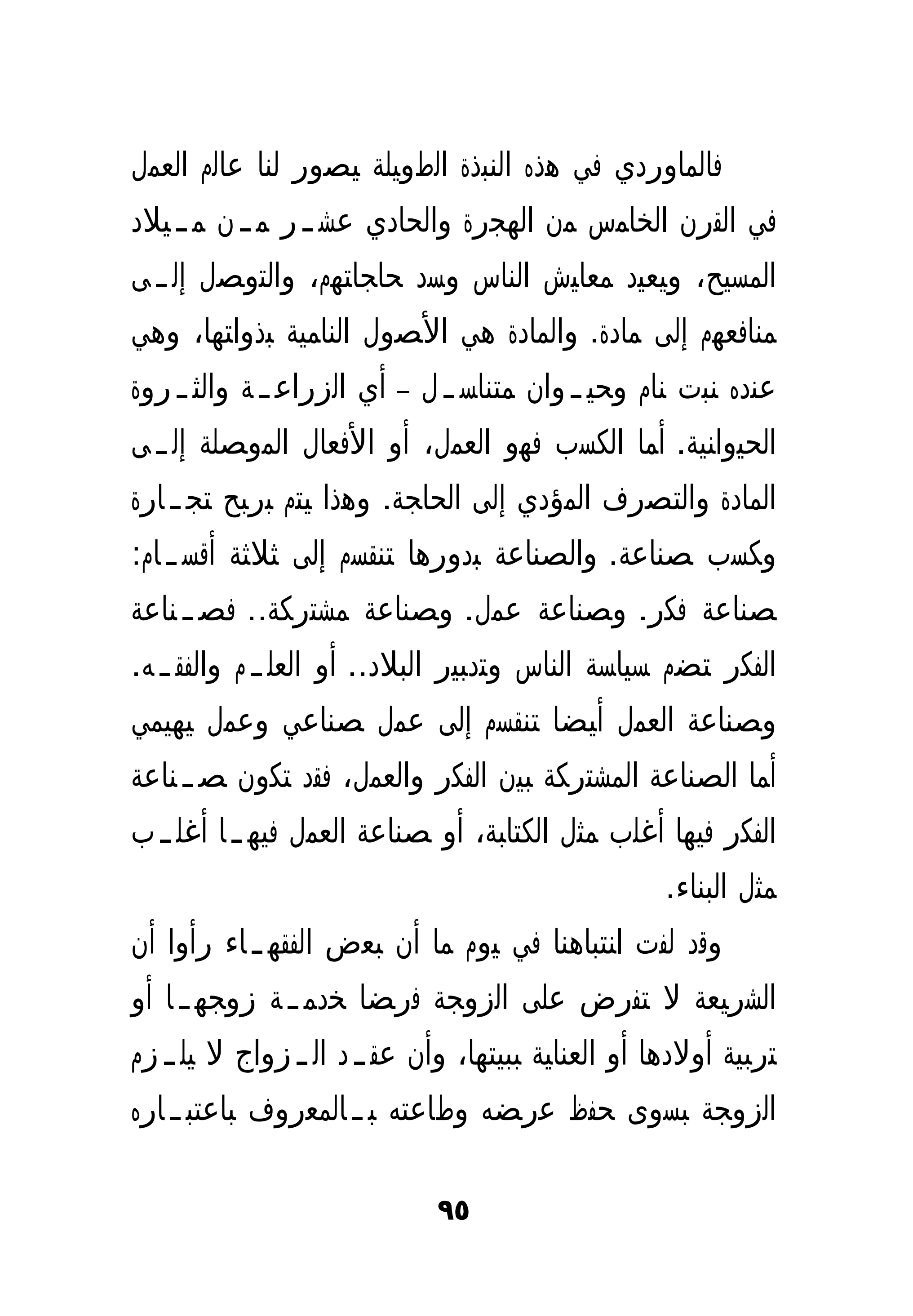
هذا على الخسف مربوط برمته

وذا يشـج فلا يرثي له أحد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقـد تنقسـم قسمين أحدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمـل تبعـا كالكتابة والثاني أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعـا كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلـب عليهـا والعمل تبعا لهذا فهذه أحوال الخلق التي ركبهم ا عز وجل عليها في ارتياد موادهم ووكلهم إلـى نظـرهم فـي طلـب مكاسبهم وفرق بين هممهم في التماسها ليكـون ذلـك سـببا لألفتهم. فسبحان من تفرد فينا بلطيف حكمته وأظهر لفطنتنـا عزائم قدرته.[1] أنتهى.

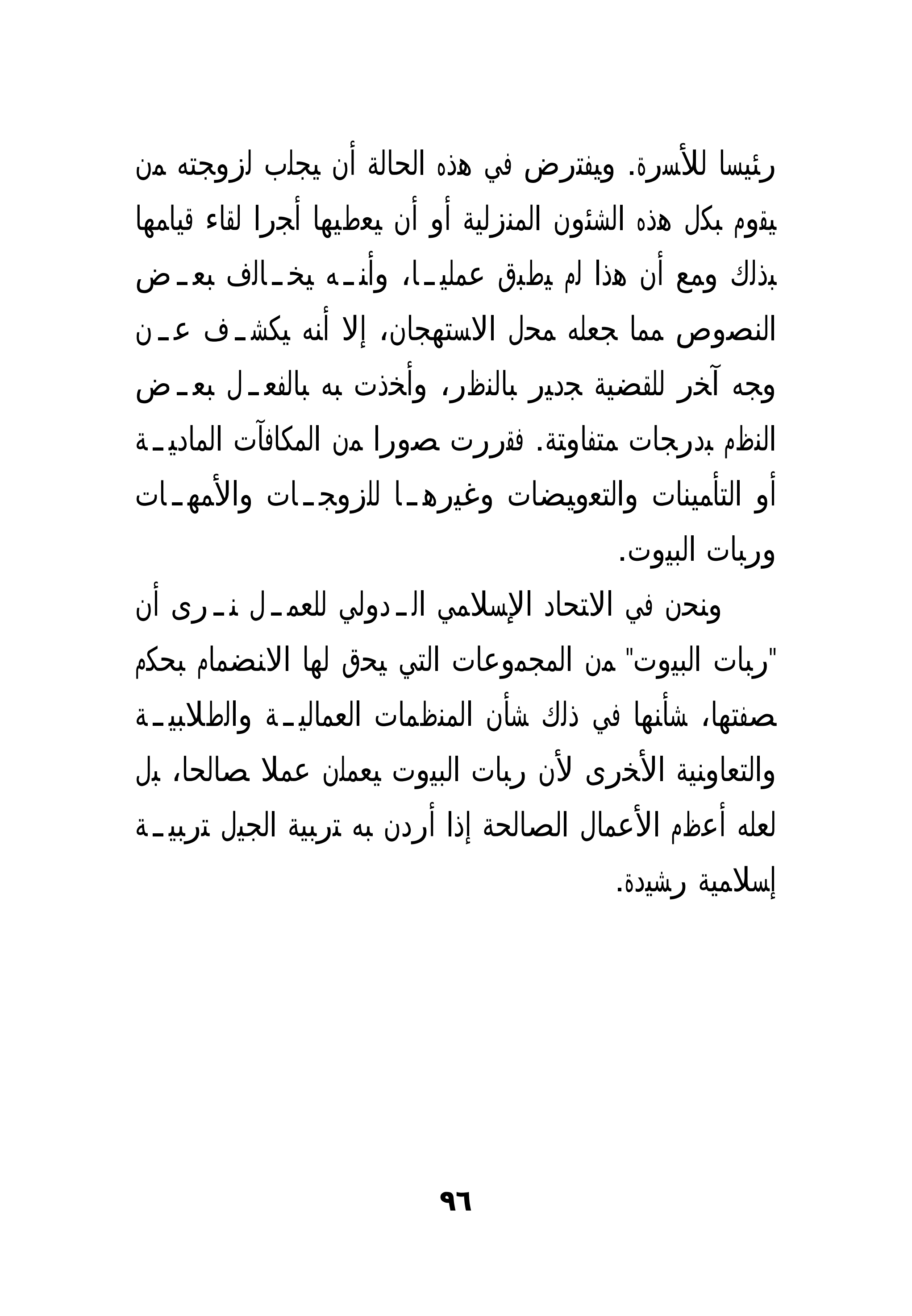
---

(١) أدب الدنيا والدين – للقاضي أبي الحسن علـى بـن محمـد البصـري الماوردي ص ١٨٧ – ١٩٤ طبعة المعارف العمومية سنة ١٩٢٨.



فالماوردي في هذه النبذة الطويلة يصور لنا عالم العمل في القرن الخامس من الهجرة والحادي عشر من ميلاد المسيح، ويعيد معايش الناس وسد حاجاتهم، والتوصل إلى منافعهم إلى مادة. والمادة هي الأصول النامية بذواتها، وهي عنده نبت نام وحيوان متناسل - أي الزراعة والثروة الحيوانية. أما الكسب فهو العمل، أو الأفعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة. وهذا يتم بربح تجارة وكسب صناعة. والصناعة بدورها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: صناعة فكر. وصناعة عمل. وصناعة مشتركة.. فصناعة الفكر تضم سياسة الناس وتدبير البلاد.. أو العلم والفقه. وصناعة العمل أيضا تنقسم إلى عمل صناعي وعمل يهيمي أما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل، فقد تكون صناعة الفكر فيها أغلب مثل الكتابة، أو صناعة العمل فيها أغلب مثل البناء.

وقد لفت انتباهنا في يوم ما أن بعض الفقهاء رأوا أن الشريعة لا تفرض على الزوجة فرضا خدمة زوجها أو تربية أولادها أو العناية ببيتها، وأن عقد الزواج لا يلزم الزوجة بسوى حفظ عرضه وطاعته بالمعروف باعتباره



رئيسا للأسرة. ويفترض في هذه الحالة أن يجلب لزوجته من يقوم بكل هذه الشئون المنزلية أو أن يعطيها أجرا لقاء قيامها بذلك ومع أن هذا لم يطبق عمليـا، وأنـه يخـالف بعـض النصوص مما جعله محل الاستهجان، إلا أنه يكشـف عـن وجه آخر للقضية جدير بالنظر، وأخذت به بالفعـل بعـض النظم بدرجات متفاوتة. فقررت صورا من المكافآت الماديـة أو التأمينات والتعويضات وغيرهـا للزوجـات والأمهـات وربات البيوت.

ونحن في الاتحاد الإسلامي الـدولي للعمـل نـرى أن "ربات البيوت" من المجموعات التي يحق لها الانضمام بحكم صفتها، شأنها في ذلك شأن المنظمات العماليـة والطلابيـة والتعاونية الأخرى لأن ربات البيوت يعملن عملا صالحا، بل لعله أعظم الأعمال الصالحة إذا أردن به تربية الجيل تربيـة إسلامية رشيدة.

الفصل الخامس

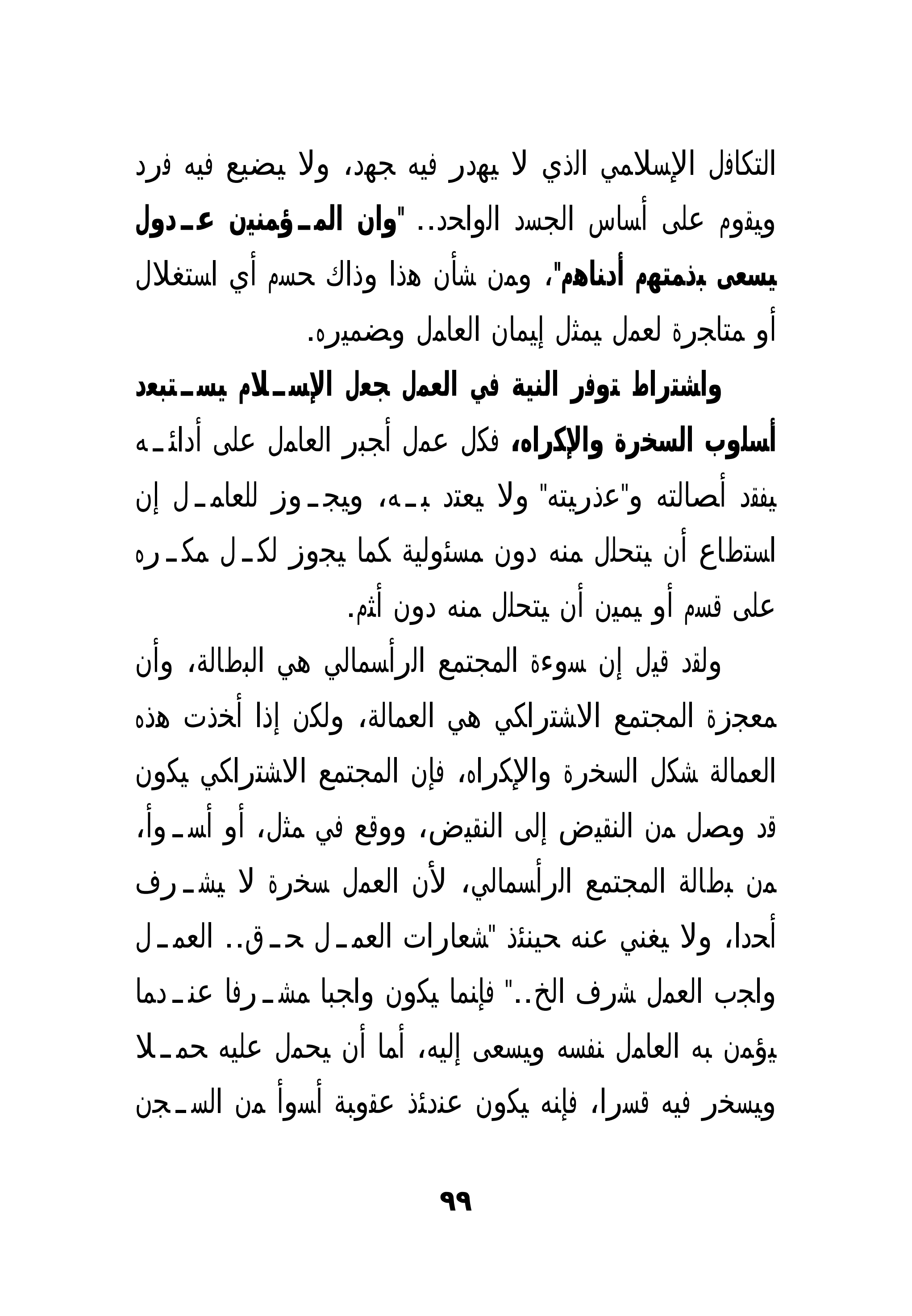
مقوّمات العمل

النيّة والصلاحيّة

يتميز العمل الذي يثاب عليه ويعتد به في الإسلام عـن غيره بمقومات معينة من أبرزها "**النيـة**" **أو مـا يمكـن أن نسميه الإرادة.** ففي الإسلام يفترض أن يصدر العمل عن نية طيبة.. وهو يقاس بدرجة "طيبة" وسمو وخلوص هذه النيـة. وأساس هذا المقوم القاعدة العامة التـي وضـعها الحـديث المشهور "**إنما الأعمال بالنيات**" والتـي اسـتلهم فيهـا روح القرآن عندما حقق للإنسان حرية الاختيار ﴿فَأَما مَنْ أَعْطَـى واتقَى وصدقَ بِالْحسْنَى فَسنُيسره لِلْيسْرى وَأَمـا مـنْ بخِـلَ واسْتَغْنَى وكَذب بِالْحسْنَى فَسنُيسره لِلْعسْرى وما يغْنِـي عنْـه مالُه إِذَا تَردى﴾ **(الليل ٥-١١)** ﴿ونَفْسٍ وما سـواها فَأَلْهمهـا فُجورها وتَقْواها قَدْ أَفْلَح منْ زكاها وقَدْ خَاب مـنْ دسـاها﴾ **(الشمس ٧-٩)** ﴿منْ كَان يرِيد الْعاجِلَةَ عجلْنَا لَه فِيهـا مـا نَشَاء لِمنْ نُرِيد ثُم جعلْنَا لَه جهنم يصْلاها مذْمومًا مدْحـورًا ومنْ أَراد الآخـِرةَ وسعى لَها سعْيها وهـُو مؤْمِن فَأُولَئِـك

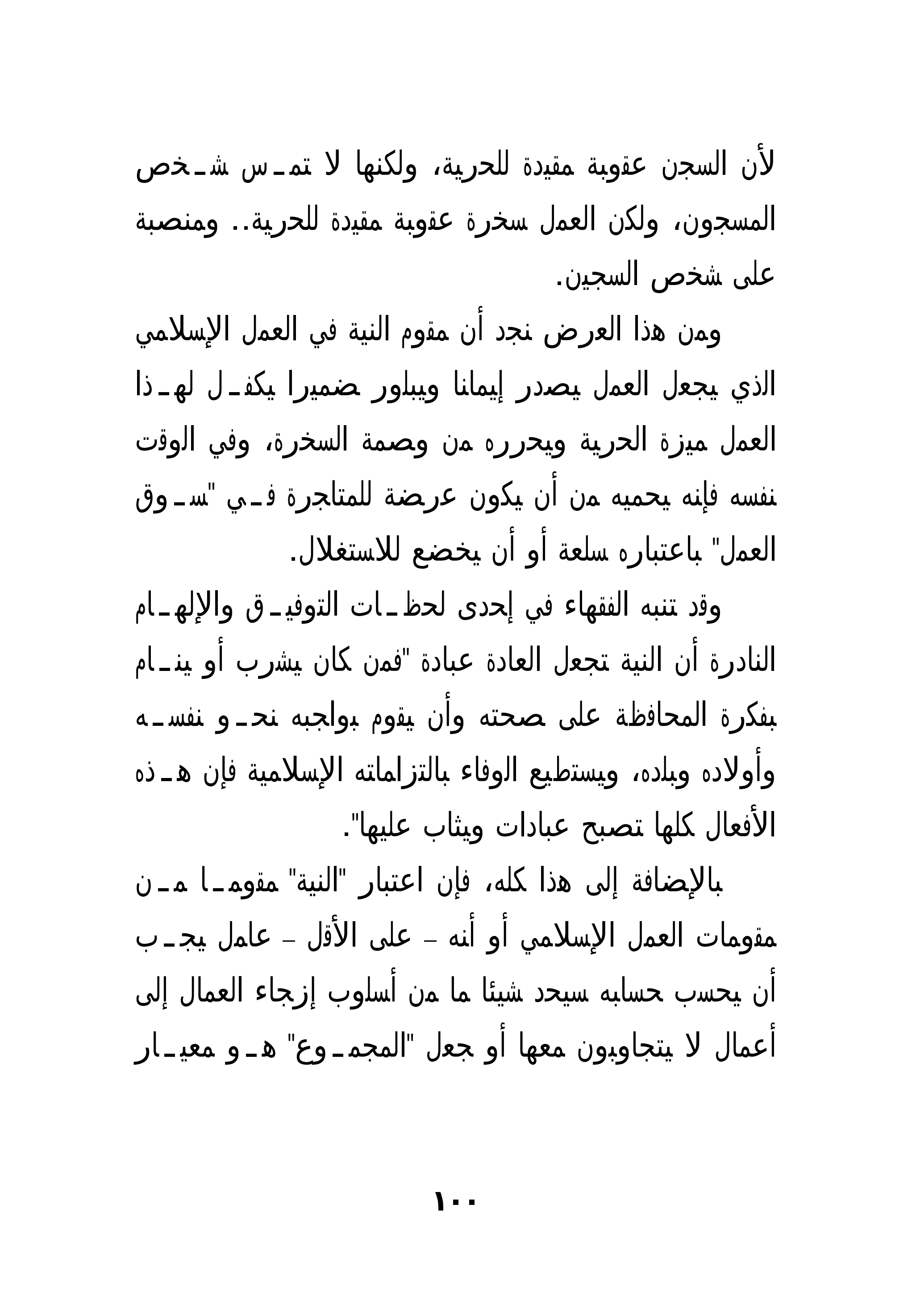
كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلًّا نُمِدُّ هَـؤُلَاءِ وَهَـؤُلَاءِ مِنْ عَطَـاءِ رَبِّـكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّـكَ مَحْظُـورًا **(الإسـراء ١٨-٢٠)**.

وهذا المقوم هو مما لا يمكن لغير الإسلام أن يتضمنه، لأن للإسلام ولاية خاصة على قلب المؤمن به متأتية من ا – الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويستلهم مـن النبي وهو المثل الأعلى والأسوة والقدوة وهذا وذاك هما مما لا يوجد في الاقتصاد أو القانون أو النظم الوضـعية عامـة. وتميز العمل الإسلامي بهذا المقوم يجعل العمل جـزءا مـن إيمان العامل، وبلورة لضميره. **ولا يمكن لمثل هـذا العمـل المنبثق عن الإرادة المكتسب للنيـة الخالصـة أن يقتطـع اقتطاعا من العامل نفسه ولا أن يكون سلعة تباع وتشـتري في سوق العمل (كما يقال في الاقتصاد الرأسمالي) ويخضع لما تخضع له السلع من قوانين العرض والطلب والمنافسة بحيث تبخس الأجور حتى يتحقق قانون الأجور الحديدي.** إن العمل الإسلامي باعتباره بلـورة لإيمـان العامـل المسـلم وضميره يجب أن يمنح حماية من عمليات البيـع والشـراء وضغوط المنافسة، كما أن العامل المسلم نفسه فرد في مجتمع


التكافل الإسلامي الذي لا يهدر فيه جهد، ولا يضيع فيه فرد ويقوم على أساس الجسد الواحد.. "**وان المـؤمنين عـدول يسعى بذمتهم أدناهم**"، ومن شأن هذا وذاك حسم أي استغلال أو متاجرة لعمل يمثل إيمان العامل وضميره.

واشتراط توفر النية في العمل جعل الإسـلام يسـتبعد أسلوب السخرة والإكراه، فكل عمل أجبر العامل على أدائـه يفقد أصالته و"عذريته" ولا يعتد بـه، ويجـوز للعامـل إن استطاع أن يتحلل منه دون مسئولية كما يجوز لكـل مكـره على قسم أو يمين أن يتحلل منه دون أثم.

ولقد قيل إن سوءة المجتمع الرأسمالي هي البطالة، وأن معجزة المجتمع الاشتراكي هي العمالة، ولكن إذا أخذت هذه العمالة شكل السخرة والإكراه، فإن المجتمع الاشتراكي يكون قد وصل من النقيض إلى النقيض، ووقع في مثل، أو أسـوأ، من بطالة المجتمع الرأسمالي، لأن العمل سخرة لا يشـرف أحدا، ولا يغني عنه حينئذ "شعارات العمـل حـق.. العمـل واجب العمل شرف الخ.." فإنما يكون واجبا مشـرفا عنـدما يؤمن به العامل نفسه ويسعى إليه، أما أن يحمل عليه حمـلا ويسخر فيه قسرا، فإنه يكون عندئذ عقوبة أسوأ من السـجن



لأن السجن عقوبة مقيدة للحرية، ولكنها لا تمـس شـخص المسجون، ولكن العمل سخرة عقوبة مقيدة للحرية.. ومنصبة على شخص السجين.

ومن هذا العرض نجد أن مقوم النية في العمل الإسلامي الذي يجعل العمل يصدر إيمانا ويبلور ضميرا يكفـل لهـذا العمل ميزة الحرية ويحرره من وصمة السخرة، وفي الوقت نفسه فإنه يحميه من أن يكون عرضة للمتاجرة فـي "سـوق العمل" باعتباره سلعة أو أن يخضع للاستغلال.

وقد تنبه الفقهاء في إحدى لحظـات التوفيـق والإلهـام النادرة أن النية تجعل العادة عبادة "فمن كان يشرب أو ينـام بفكرة المحافظة على صحته وأن يقوم بواجبه نحـو نفسـه وأولاده وبلاده، ويستطيع الوفاء بالتزاماته الإسلامية فإن هـذه الأفعال كلها تصبح عبادات ويثاب عليها".

بالإضافة إلى هذا كله، فإن اعتبار "النية" مقومـا مـن مقومات العمل الإسلامي أو أنه – على الأقل – عامل يجـب أن يحسب حسابه سيحد شيئا ما من أسلوب إزجاء العمال إلى أعمال لا يتجاوبون معها أو جعل "المجمـوع" هـو معيـار

التعيين.. وسيؤدي هذا إلى الأخذ بنظام القابلية والحرص على توفر عنصر التفضيل الشخصي ما أمكن ذلك.

وإذا تحكمت الضرورات فسيق فرد ما إلـى عمـل لا يحس نحوه قابلية أو تجاوبا، فاعتقد أن مـن المفـروض أن يمنح مثل هذا الفرد "علاوة" تعينه على تقبل هذا العمل.

* * *

ومن المقومات البارزة في العمل الإسـلامي أن يكـون "صالحا" وكلمة صالحا والصالحات ومشتقاتها هي من الألفاظ القرآنية التي أعطاها تواترها في القرآن "هوية" قرآنية توضح قسماتها وتجعل معاجم اللغة توردها كالآتي:

صلح : زال عنه الفساد، وصلح الشيء كـان نافعـاً أو مناسباً وأصلح في عمله أو أمره أتى بما هو صـالح ونـافع وأصلح الشيء أزال فساده. **وأصلح** بينهما أو ذات بينهما أو بينهما أزال ما بينهما من عداوة وشقاق.

وصالحه مصالحه وصلاحا (بكسـر الصـاد) سـالمه وصافاه ويقال صالحه على الشيء سلك معه مسلك المسالمة في الاتفاق.

الصالح المستقيم المؤدي لواجباته.

الصلاح الاستقامة.. والصلاح السلامة من العيب.

والصلاحية.. الاتساق في عمل ما "والصلاحية للعمـل حسن التهيؤ له"[1].

وهذا التحديد لمعنى الكلمة هو ما يتفق مع معنى الكلمة في القرآن. لأن القرآن يستخدمها في مقابل الفسـاد.. وإِذَا قِيلَ لَهمْ لا تُفْسِدوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنما نَحْن مصْـلِحون أَلا إِنهمْ همْ الْمفْسِدون ولَكِنْ لا يشْعرون ، يفْسِدون فِي الأَرْضِ ولا يصْلِحون ، وأَصْلِحْ ولا تَتبِعْ سبِيلَ الْمفْسِدِين ، والله يعْلَم الْمفْسِد مِنْ الْمصْلِحِ ، ولا تُفْسِدوا فِـي الأَرْضِ بعْـد إِصْلاحِها . كما أن القرآن يذكر اللفظة فـي مقابـل الظلـم أيضا.. وعقب التوبة فَمنْ تَاب مِنْ بعْدِ ظُلْمِـهِ وأَصْـلَح ، وما كَان ربك لِيهلِك الْقُرى بِظُلْمٍ وأَهْلُها مصْلِحون .

وهكذا يتضح أن معنى كلمة الصـالح والصـالحات لا يمكن أن يقتصر على الشعائر والفـرائض العباديـة، كمـا يتصور الناس وأن الرجل الصالح ليس هو بالدرجة الأولى، من يتزيي بزي التقوى والورع، ولكنـه النـافع والمناسـب والعادل والكفء والبريء من شوائب الفساد أو الظلم.

---

(١) المعجم الوسيط ج ١ ص٥٢٠.

وقد يستخدم القرآن لفظة أخرى أكثر مباشرة وأقرب في الدلالة على الطابع العملي وهي "حسنة" وهو يستخدمها فـي مقابل لفظة أخرى تماثلها في الدلالة على الطابع العملي وهي "سيئة". وتبني القرآن لهذه اللفظة، وليس لفظة "خطيئـة" ذات الدلالة الدينية يوضح الطابع العملي للإسلام. وإن كانت كلمة "حسنة" ومشتقاتها أيضا قد التبست في الإفهام بمـا يجعلهـا تعطي معنى "التصدق" برا وعطفا.

وعلى كل حال، فإن "التصدق" ليس بعيدا عـن مجـال العمل.. وهو أقرب إليه مما هو إلى مجال العبادة، لأنه ليس إلا صورة من صور الإنفاق ذات الأثر البعيد فـي صـلاح المجتمع.

مع هذا فعلينا أن نلحظ أن القرآن، وإن كان قد اختـار لفظتي الصالحات والحسنات اللتين توحيان بمعان ذات طبيعة عملية من إحسان أو كمال أو استقامة أو صلاحية الخ.. فإن الكلمتين نفسيهما لهما صلة ما بمعان الطيبة والخيـر التـي ترتبط بالدين. فالعمل الإسلامي يتطلب نية طيبة خيرة – كما يتطلب فعالية وإحسانا، وقد أجمل القرآن بإعجازه الخـارق القضية كلها في لفظتين عندما صور المثل المنشود للعامـل

الْقَوِي الأَمِين . فالإسلام لا يقنع بقوة دون أمانة أو أمانة دون قوة وإنما هو يريدهما معا للعمل الإسلامي، وإن تفاوتت النسب، أو تطلبت المواقف إبراز عنصر على عنصر. فقد كان حظ خالد بن الوليد – ممثل القوة في قيادة الجيوش أعظم من حظ أبي عبيدة ممثل الأمانة، وكان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر من بعده. يعلمون أن خالد أقل من أبي عبيدة سابقة وإيمانا ولكنه أرجح منه قيادة ولهذا آثروه بالقيادة. مع أن النبي ﷺ كان يقول **"اللهم أني أبرأ إليك مما فعل خالد!"** وأن أبا بكر كتب إلى أبي عبيدة ".. ولّيت خالد لقتال العدو في الشام فلا تخالفه واسمع له واطع. وأنا أعلم أنك خير منه وأفضل دينا، ولكني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك فأحببت أن أنسى به الروم وساوس الشيطان". ولم ير عمر بن الخطاب أن عمار بن ياسر أو أبا ذر بأصحاب ولاية على حين أنه أبقى معاوية بن أبي سفيان واليا للشام، وأين معاوية من عمار وأبي ذر ورعا وإيمانا وسابقه وصحبه، ولكنه كان أدرى منهما بفنون الحكم، وهذا هو ما يطلقون عليه في التعبيرات الحديثة "الرجل المناسب في المكان المناسب".

واستخدام هذين المقومين : النية والصلاحية لتقييم العمل وهما الحكم على مدى إسلاميته - بمعنى أن كل عمل يؤمن صاحبه أن ممارسته له توفر له مورد العيش الذي يفضله، أو لا يستطيع احتراف غيره في ظروفه وملابسـاته، وأن هـذا العمل يفيد المجتمع، ويسد ثغرة من احتياجات المسلمين، فإنه يعد "إسلاميا" يثاب عليه، وان تقييم العمل قد لا يكون بالعمل نفسه قدر ما يكون بالنية فيه ومكانه في خدمة المجتمع. فقـد تكون بعض الأعمال مرهقة، متعبة، تضطر صـاحبها إلـى صنوف من الأذى والقذر، ولكنها مع هذا تكـون "إسـلامية" يثاب صاحبها عليها، وبل قد يضاعف له الثواب لقـاء مـا يعانيه من إرهاق وأذى..

استخدام هذا المعيار المزدوج (النية والصلاحية) يختلف اختلافا تاما عن مذاهب الفقهاء في الحكم على الحرف - تلك المذاهب التي جعلتهم يحكمون على عديد من الحرف بأنهـا "حرف دنيئة". ولا يخالجنا أقل شك في أن هـؤلاء الفقهـاء كانوا يعبرون عن عقلية ونفسية مجتمعاتهم، وما حفلت به من رواسب عصور الانحلال.. وليس عن وجهة نظر الإسلام.

وقد نقل لنا وجهة نظر الفقهاء كاتب معاصر هو الدكتور محمد رواس قلعجي في بحث موجز بعنوان "الاحتراف وآثاره في الفقه الإسلامي"[(١)] فقال تحت عنوان "حصر الحرف الدنيئة" :

"لقد حرص الفقهاء على تحديد الحرف الدنيئة، ليبقى ما وراءها من الحرف شريفا، فأول ما بدءوا به بيان تصورهم للحرفة الدنيئة فقالوا: الحرفة الدنيئة هي كل حرفة دلت ملابساتها على انحطاط المروءة وسقوط النفس، ثم راحوا يعتمدون على العرف في تعداد الحرف الدنيئة التي حكمت عليها أعراف عصرهم أنها حرف دنيئة.

- فذكر المالكية الحجام والزبال والحائك والفران والحمامي والشاعر الذي يمدح الناس في الأسواق والولائم ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

- وذكر الحنابلة الحائك والحجام والفصام - وهو الذي يجرح الجلد ليسيل منه الدم - والحارس والكساح - وهو الذي

---

(١) وقد طبعه ونشره المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي - جامعة الملك عبد العزيز آل سعود جدة - الحجاز وأورد الكاتب في هوامش بحثه المراجع التي استمد منها هذه الأحكام من كتب الفقه المعتمدة مما لم نجد حاجة لإثباتها. (من ص١٢ إلى ص١٧).

ينظف الأفنية والكنف - والدباغ والحمامي والزبال والصباغ والصائغ والحداد ومـؤجر الفحـل للعسـب - أي اللقـاح - والماشطة - التي تتولى تزيين النساء - والنائحة والـبلان - وهو قيم الحمام - والمزين والجرائحـي - وهـو الطبيـب الجراح - والبيطار ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

- وذكر الشافعية الكناس والحجام والحارس والراعـي وقيم الحمام (البلان) والفصاد والحاقن - الذي يداوي النـاس بالحقنة الشرجية - والقمام والقصار والزبال والكحال والدباغ والإسكاف والجزار والقصاب والسـلاخ والجمـال - الـذي يسوق الجمال بالمراكب - والدلال - الذي ينادي على السلع - والحمال والحائك والملاح والجلاد والهراس - الذي ينـادي على الهريسة ليبيعها - والفوال والحـداد والصـواغ - هـو الصائغ - والبيطار من الذين يتعاطون حرفا دنيئة.

- وذكر الحنفية الحائك والحجـام والكنـاس والـدباغ والحلاق والبيطار والحداد والصفار - الذي ينظف الأوانـي النحاسية ويطليها بالقصدير - والحارس والسائس والراعـي وقيم الحمام والبواب والسواق - الذي يسوق الدابة بالراكب - والفراش - الذي يتولى تنظيف مفروشات المنزل ونحـوه -

والوقاد والمرضع التي احترفت الإرضاع بأجر، ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

* وبذلك نرى أنهم اتفقوا على أن الحجام والزبال - ويقال له الكناس والكساح - والحائك والبلان ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

وأن المدقق في هذه الحرف يرى أنها اعتبرت حرفا دنيئة للعلل التي سنذكرها إن شاء ا :

فالحجامة : - وهي مص الدم والقيح بالفم – كانت حرف دنيئة لمخالطة متعاطيها النجاسة.

والزبال : - وهو الذي يجمع أوساخ الناس وقمامات بيوتهم – كانت حرفته دنيئة لما فيها من مخالطة النجاسات، ومخالطة القاذورات، فضلا عن أنها من الأعمال البهيمية التي يؤديها متعاطيها من غير فكر.

والحياكة : - كانت قديما من الحرف الدنيئة لما يداخلها من الغش، فالحائك - في القديم - كان يرش الدقيق المذاب بالماء على القماش لستر به عيوب الحياكة، وليبدو النسيج جيدا، والثوب صفيقا.

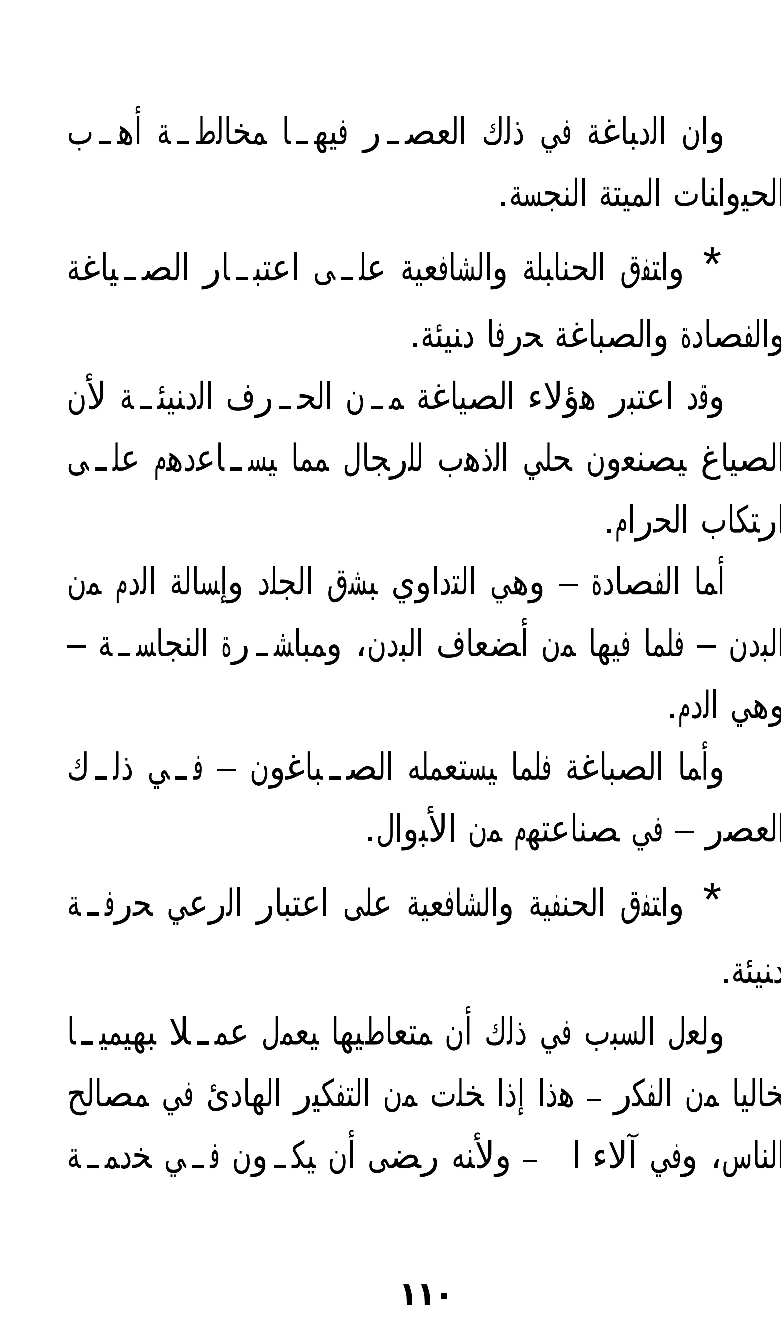
والبلان : - وهو قيم الحمام – فإن حرفته اعتبرت دنيئة لما يقع فيه متعاطيها من إطلاع على عـورات النـاس فـي الحمام.

* واتفقت المذاهب الثلاثة : الحنفي والشافعي والحنبلي على اعتبار حرفة الحراسة والحدادة والبيطرة والدباغة حرفا دنيئة.

وإن المدقق في هذه الحرف يرى أن الحراسة - والمراد بها الحراسة الخاصة أعني : حراسة شـخص، لا الحراسـة العامة التي هي جزء من مهام الدولة في الحفاظ على الأمـن - اعتبرت حرفة دنيئة لما فيها من الخدمة المباشرة للأبـدان من غير ضرورة، والتبعيـة الكاملـة لشـخص، وتقلـص الشخصية، بل ذوبانها، وزوال عنصر الفكر، حتى لتصـبح من الأعمال البهيمية.

وان الحدادة في ذلك العصر فيها من الاستقذار وتشويه الصورة - أي الوجه - بالسواد ونتن الرائحة ما تترفع عنـه النفوس العالية.

وان البيطرة - في ذلك العصر - فيها الرضا بمخالطـة الحيوانات وأبوالها وأرواثها.



وان الدباغة في ذلك العصـر فيهـا مخالطـة أهـب الحيوانات الميتة النجسة.

* واتفق الحنابلة والشافعية علـى اعتبـار الصـياغة والفصادة والصباغة حرفا دنيئة.

وقد اعتبر هؤلاء الصياغة مـن الحـرف الدنيئـة لأن الصياغ يصنعون حلي الذهب للرجال مما يسـاعدهم علـى ارتكاب الحرام.

أما الفصادة – وهي التداوي بشق الجلد وإسالة الدم من البدن – فلما فيها من أضعاف البدن، ومباشـرة النجاسـة – وهي الدم.

وأما الصباغة فلما يستعمله الصـباغون – فـي ذلـك العصر – في صناعتهم من الأبوال.

* واتفق الحنفية والشافعية على اعتبار الرعي حرفـة دنيئة.

ولعل السبب في ذلك أن متعاطيها يعمل عمـلا بهيميـا خاليا من الفكر - هذا إذا خلت من التفكير الهادئ في مصالح الناس، وفي آلاء ا - ولأنه رضى أن يكـون فـي خدمـة

البهيمة العجماء، وهي أدنى حالا من الإنسان الذي اعتبـروا خدمة بدنه خدمة محضة من غير ضرورة حرفة دنيئة.

* ونص الحنابلة علـى اعتبـار النائحـة والماشـطة والجرائحي - الطبيب الجراح - وبيع عسب الفحـل حرفـا دنيئة.

ووجهة نظر الحنابلة في ذلك أن النائحة - وهي التـي تبكي على الموتى وتندبهم بأجر - تتعاطى عملا نهى عنـه الشارع الحكيم لقول رسول ا ﷺ (الميت يعذب في قبره بما نيح عليه) وعن أم عطية الأنصارية - وهي من المباعيـات قالت : أخذ علينا رسول ا ﷺ في البيعة ألا ننوح.

وأن الماشطة – وهي المزينة – كانت تتعـاطى نتـف النمص من الوجه وهو أمر نهى عنه الشارع لقول رسـول ا ﷺ (لعن ا النامصة والمتنمصة).

وأن بيع عسب الفحل - أي تأجير الفحل للقاح نهى عنه الشارع الحكيم فقد روى جابر بن عبد ا قال : نهى رسول ا عليه وسلم عن ضراب الجمـل - أي ركـوب الأنثـى للوقاع.

وأن الجرائحي كالفصاد يخالط الدم وهو نجس.

* ونص الحنفية علـى اعتبـار السـائس والسـواق، والفراش، والبواب، والوقاد والصـفار، والمرضـع ممـن يتعاطون حرفا دنيئة.

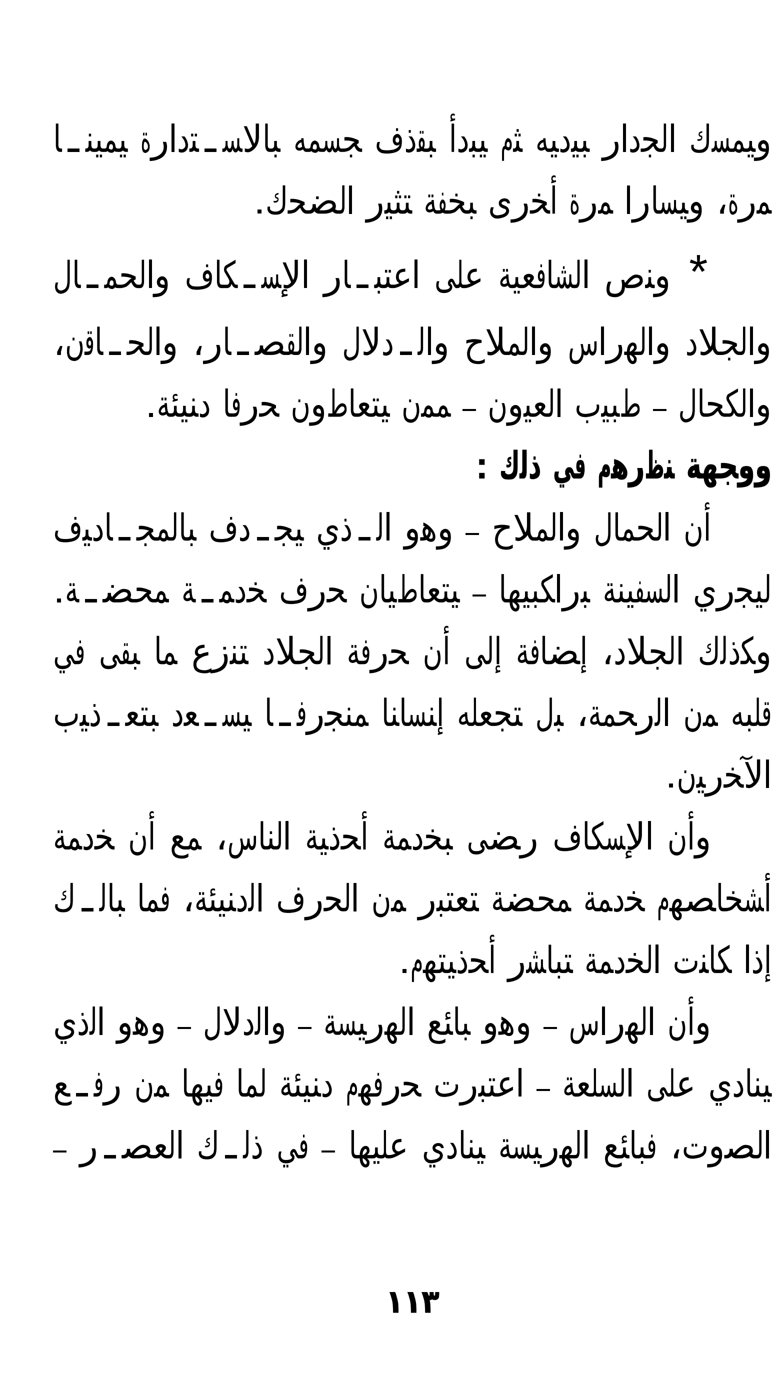
ووجهة نظرهم في ذلك :

أن السائس كالبيطار رضى أن يكون في خدمـة جسـد الحيوان، وهو يخالط أبوال الحيوان وأرواثه، وهي نجسة.

وأن السواق - وهو الذي يركض وراء الدابة يسـوقها بالرجل الراكب عليها - والفراش والبواب والمرضع وضعوا أنفسهم في خدمة أحياء آخـرين - فهـم يتعبـون ليسـتريح غيرهم، ويشقون، ليسعد غيرهم من غيـر ضـرورة ملحـة لذلك.

وأن الوقاد - وهو الذي يمد النار بالقمامة ليدوم اشتعالها - يخالط الأقذار والنجاسات.

وأن الصفار – وهو الـذي يجلـو الأوانـي النحاسـية ويطليها بالقصدير يقوم بحركات صبيانية مضـحكة تجعـل الصبيان يضحكون منه حين قيامه بعمله، وذلك أنـه يحفـر حفرة قليلة العمق قريبة من الجدار، ويضـع فيهـا الوعـاء النحاسي كالقدر الكبيرة مثلا ويقف هو فـي وسـط القـدر



ويمسك الجدار بيديه ثم يبدأ بقذف جسمه بالاسـتدارة يمينـا مرة، ويسارا مرة أخرى بخفة تثير الضحك.

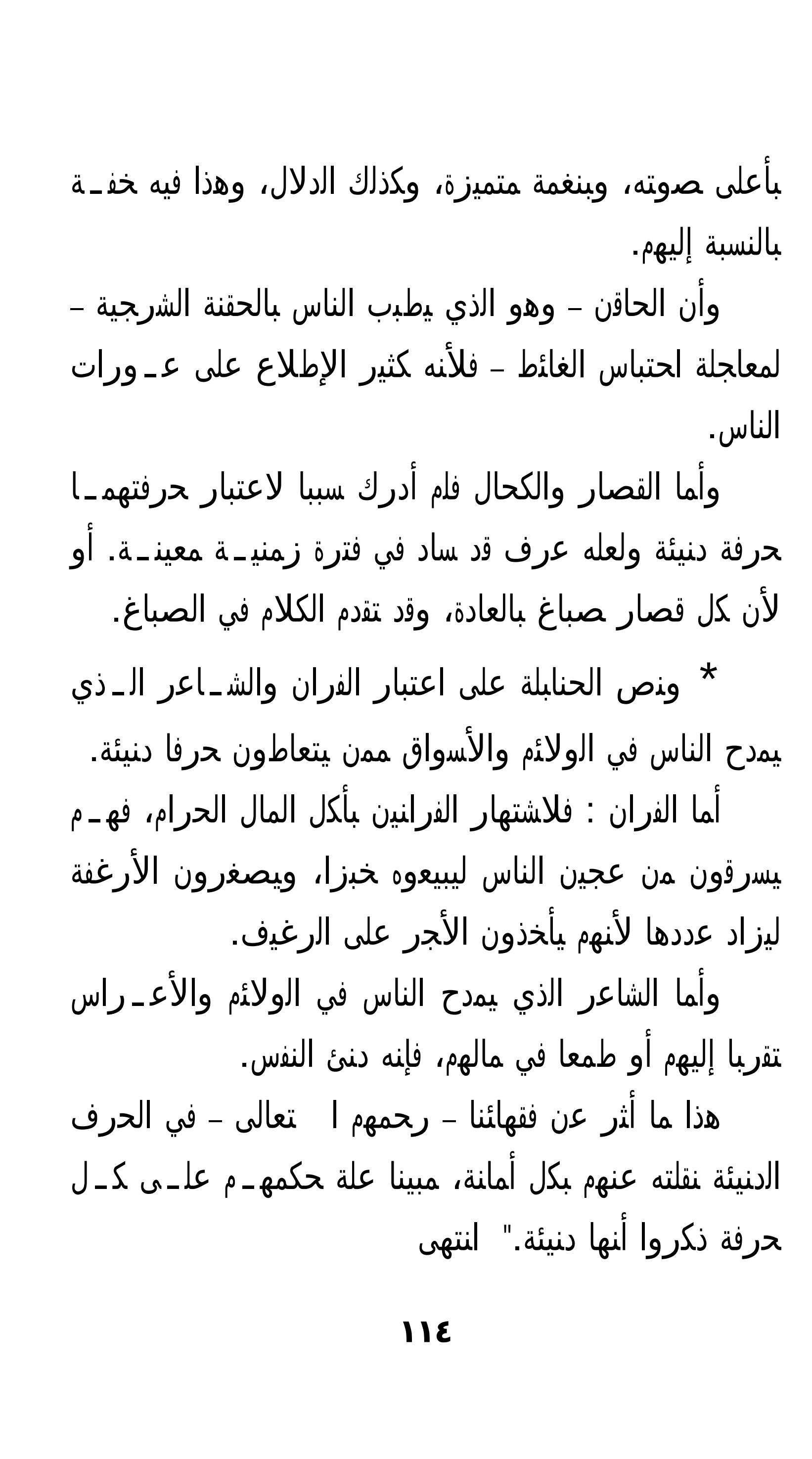
* ونص الشافعية على اعتبـار الإسـكاف والحمـال والجلاد والهراس والملاح والـدلال والقصـار، والحـاقن، والكحال – طبيب العيون – ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

ووجهة نظرهم في ذلك :

أن الحمال والملاح – وهو الـذي يجـدف بالمجـاديف ليجري السفينة براكبيها – يتعاطيان حرف خدمـة محضـة. وكذلك الجلاد، إضافة إلى أن حرفة الجلاد تنزع ما بقى في قلبه من الرحمة، بل تجعله إنسانا منجرفـا يسـعد بتعـذيب الآخرين.

وأن الإسكاف رضى بخدمة أحذية الناس، مع أن خدمة أشخاصهم خدمة محضة تعتبر من الحرف الدنيئة، فما بالـك إذا كانت الخدمة تباشر أحذيتهم.

وأن الهراس – وهو بائع الهريسة – والدلال – وهو الذي ينادي على السلعة – اعتبرت حرفهم دنيئة لما فيها من رفـع الصوت، فبائع الهريسة ينادي عليها – في ذلـك العصـر –



بأعلى صوته، وبنغمة متميزة، وكذلك الدلال، وهذا فيه خفـة بالنسبة إليهم.

وأن الحاقن - وهو الذي يطبب الناس بالحقنة الشرجية - لمعاجلة احتباس الغائط - فلأنه كثير الإطلاع على عـورات الناس.

وأما القصار والكحال فلم أدرك سببا لاعتبار حرفتهـا حرفة دنيئة ولعله عرف قد ساد في فترة زمنيـة معينـة. أو لأن كل قصار صباغ بالعادة، وقد تقدم الكلام في الصباغ.

* ونص الحنابلة على اعتبار الفران والشـاعر الـذي يمدح الناس في الولائم والأسواق ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

أما الفران : فلاشتهار الفرانين بأكل المال الحرام، فهـم يسرقون من عجين الناس ليبيعوه خبزا، ويصغرون الأرغفة ليزاد عددها لأنهم يأخذون الأجر على الرغيف.

وأما الشاعر الذي يمدح الناس في الولائم والأعـراس تقربا إليهم أو طمعا في مالهم، فإنه دنئ النفس.

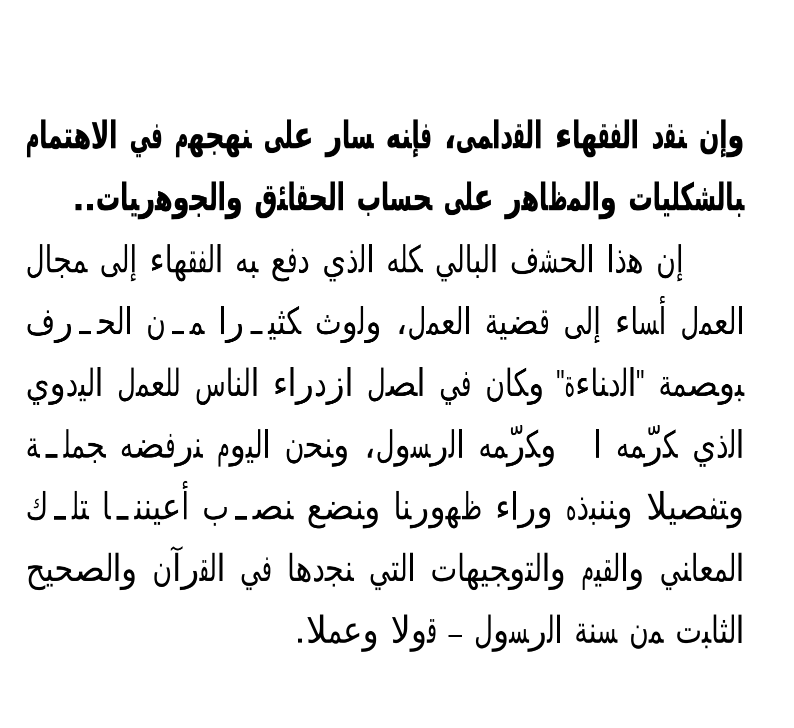
هذا ما أثر عن فقهائنا - رحمهم ا تعالى - في الحرف الدنيئة نقلته عنهم بكل أمانة، مبينا علة حكمهـم علـى كـل حرفة ذكروا أنها دنيئة." انتهى

بهذا كاد الفقهاء أن يدخلوا معظم الحرف اليدوية في إطار "الحرف الدنيئة" وفاتهم أن النبي ﷺ فضل العمل اليدوي. وأنه قبل اليد التي مجلتها المسحاة قائلا "هذه يد يحبها ا ورسوله" وأنه هو نفسه كان يخصف نعله ويقم بيته ويجمع الحطب، وأن مهنته، ومهنة موسى كانت الرعي. وأنه آسف لما علم بوفاة عجوز كانت تقم المسجد لأن هذا حال دون أن يصلي عليها. وأن مهنة داود كانت الحدادة ومهنة إدريس كانت الخياطة ومهنة نوح كانت النجارة وأن الصحابة والتابعين، وأئمة المذاهب، من علي بن أبي طالب حتى أحمد بن حنبل عملوا أعمالا يدوية، بل اشتغلوا في حمل الأثقال! وأن أعلى أسماء في الأرستقراطية القرشية الإسلامية: زينب بنت جحش وأسماء بنت عميس كانتا تقومان بالدبغ وبكثير مما ادخلوه في الحرف الدنيئة!

ولكن هذا القطع من الفقهاء لا يعد غريبا بعد أن ذهب بعضهم إلى أن "غزل الرجل إن كان على مثال غزل المرآة يكره ! لأنه تشبه بهن !".

فإذا كانت هذه المزاعم والآراء هي الآن تدين أصحابها بأنهم كانوا يحكمون بروح عصرهم، وبجزئيات لا قيمة لها

إلا في حكم الصنعة الفقهية علـى حسـاب جـوهر وروح الإسلام، فإن من الغريب أن نجد مؤلف رسالة "**الاحتراف..**" يجري على سنن هؤلاء الفقهاء فيصنف الحرف على أسـاس حرف للنساء وأخرى للرجال ذاهبا إلـى أن "الأخـذ بهـذا التصنيف يؤدي عمليا إلى فصل النساء عـن الرجـال فـي العمل، فإذا كان عمل النساء غير عمل الرجال، فلا مبـرر إذن لاختلاط الرجال بالنساء في العمل على الأقـل، وبـذلك يتحقق أروع انسجام بين النظم الإسلامية حيث يساند بعضها بعضا ويساعد بعضها بعضا على تحقيـق أهدافـه". **وفـات الباحث أن الإسلام لم يستهدف فصل النساء عن الرجال، بل لقد نهى النبي ﷺ عن منعهن من المساجد، وهـو نهـي لا يزال شجي في حلق الفقهاء !** وقد كان يخـرج بهـن فـي الأعياد، وكان من النساء من يشتركن في الحـرب اشـتراكا فعليا وأن النبي استجاب لمن أرادت أن تشترك فـي الغـزو البحري مع الرجال فضلا عـن التمـريض والعـلاج. وأن مجتمع الآيات القرآنية لا يعرف الفصل بين الجنسين. فهـو يشير إليهما بدون تمييز، وهو يفترض وجـود النسـاء مـع الرجال، وإلا لما أمر بغض النظر، وآداب الزينة. **فالمؤلف،**



وإن نقد الفقهاء القدامى، فإنه سار على نهجهم في الاهتمام بالشكليات والمظاهر على حساب الحقائق والجوهريات..

إن هذا الحشف البالي كله الذي دفع به الفقهاء إلى مجال العمل أساء إلى قضية العمل، ولوث كثيـرا مـن الحـرف بوصمة "الدناءة" وكان في اصل ازدراء الناس للعمل اليدوي الذي كرّمه ا وكرّمه الرسول، ونحن اليوم نرفضه جملـة وتفصيلا وننبذه وراء ظهورنا ونضع نصـب أعيننـا تلـك المعاني والقيم والتوجيهات التي نجدها في القرآن والصحيح الثابت من سنة الرسول – قولا وعملا.

الفصل السادس

حتى لا نفقد الابتسامة ...

اقتصر حديثنا حتـى الآن عـن مقومـات ومضـمون وأخلاقيات العمل في الإسلام، وما يفترض في هذه كلها، وما ينبغي لها، ولكننا نريد أن نشير إلى ناحية أخرى قلما يلحظها الكتاب والخبراء، وإن لحظها الأدبـاء والفنـانون بحاسـتهم الفنية، تلك هي أنه في كثير مـن الحـالات نجـد العامـل الأوروبي يعمل.. وعلى وجهه ابتسامة. إن الأمر لا يقتصر على الإتقان والإخلاص والمهارة، ولكن أيضا السعادة التـي يحسها العامل عبر عمله وبفضله، سواء كانت هذه السـعادة صادرة عن إحساس بخدمة الناس وتقديم شيء لهم يـريحهم ويفيدهم أو لأنه يرضي في النفس حاسة أو جانبا معينا. وفي الحالتين، فإن هذه السعادة تتجسم في ابتسامة يهديها العامـل مع عمله.. وفوق عمله..

ولكي تكون الفكرة مفهومة. سـأنقل هنـا ملاحظـات لكاتبين عن هذا الموضوع، أولها الدكتور **حسين مؤنس** الذي

نشر في مجلة أكتوبر مقالا بعنوان "**حكاية مدام عفـاف**"[1] تحدث فيه عن تجربته مع السكرتيرات في أوروبا وأمريكـا ومصر. ففي سنة **١٩٥٠** ذهب إلى جامعة ييـل (الولايـات المتحدة) أستاذا زائرا..

ولندعه يتحدث..

"كنا حوالي عشرة رجال ونساء أعضاء هيئة التـدريس في قسم التاريخ. وكان للقسم سكرتيرة واحدة اسـمها مسـز نورما كارتن، كانت في منتصف الأربعينات مـن عمرهـا، وكانت وسيمة ورشـيقة، ولهـا ولـد وبنـت فـي أوائـل العشرينات..

ومسز كارتن كانت تقوم بأعمال السكرتارية لنـا كلنـا على نحو يدعو إلى الإعجاب، كنت لا تراها إلا فـي آنـق صورة دون تكلف أو قصد. كنت تراها في ثياب رشيقة غاية في الحشمة. على وجهها ابتسامة لا تغيب، وفي نفسها طيبة جميلة، وأنت تأتي في الصباح وتطلب منها كل مـا تريـد : تملي عليها نصوص خطابين أو ثلاثة وترجوهـا أن تحجـز لزوجتك موعدا مع طبيب التوليد. وترسل زهورا إلى زميل

(١) العدد ٣٦٩ في ٢٠ نوفمبر ١٩٨٣.

لمناسبة عيد ميلاده، وتحجز لك تذكرة في قطـار السـابعة صباحا إلى نيويورك بعد غد مع الحجز في فندق كذا، وهـي تسألك إن كنت ستحضر العشاء عند العميد في يـوم كـذا، وتبلغك أن الأستاذ فلان مريض في المستشفى ويستحسن أن تمر عليه. وتدخل إلى درسك وتلقي محاضرتك وتخرج لتجد أن كل شيء تمام على الطريقـة الأمريكيـة لا المصـرية: خطاباتك جاهزة على التوقيـع، وموعـد الطبيـب حجـز، والزهور أرسلت، وتذكرة سـكة الحديـد حجـزت وكـذلك حجرتك في فندق ولنجتون وهذا هو رقـم الغرفـة، وهـي تنصحك بأن تحضر العشاء عند العميـد لأن السـيدة حـرم العميد لا تحب أن يعتذر أحد عن الاستقبال في بيتها..

كنت أنا أقل مئونة من غيـري لأن الآخـرين كـانوا يطلبون عشرات الأشياء وهي تقوم بكل المطالب في كفايـة تملأ النفس بهجة وهي لا تنسى أن زوجتك اقتـرب ميعـاد ولادتها، فهي تمر عليها في البيت لتذهب معها إلى المتـاجر لشراء حاجات الطفل القادم.

وإلى حد بعيد كانت نورما كارتن الذراع اليمنى لعشرة رجال ونسائهم، وكان رئيس القسم مؤرخـا عظيمـا ولكـن

مشاكله مع امرأته لا تنتهي، ونورما دائمـا هـي الوسـيط وقاضي الصلح".

ويستطرد الدكتور حسين مؤنس فيشير إلى سـكرتيرته في باريس مدام سوزان ارفيو..

"هذه يا سيدي كانت في الثلاثينات، ولكنها كانت آية في الكفاية كانت تجيد الإنجليزية والفرنسـية وتكتـب الماكينـة بسرعة ودقة وتأخذ أي رسالة بالاستينو أو الاختزال، وكانت تعرف كل شيء وتحل لك كل مشكل، وتعطيها فقط المذكرة فتكتبها لك أحسن كتابة وأبلغها. وتحجز الطـائرة والفنـدق وتحافظ لك على حقوقك في المنظمة، ومن الثامنـة صـباحا تجدها في مكتبها وفي منتصف النهار تدعوك للغـداء فـي الكافيتريا مع زوجها وابنتها. زوجها الطبيب يـدعوك إلـى مسرحية بديعة يمثلونها في الشاتليه. ومدام ارفيو تنصحك في كل ما يتعلق بما تريد شراءه لزوجتك وأولادك. وهي تذكرك بموعدك مع طبيب العيون، ولا أذكر أنها نسيت مرة واحـدة أن توصلني بسيارتها إلى المحطة الجوية (الأيرو جار) قرب الانفاليد، فإذا لم تستطع فهناك أبنتهـا كـارولين أو زوجهـا الدكتور روجيه أرفيو..

وإلى جانب ذلك كله فهي باريسية من شعرها إلى كعب حذائها : أنيقة رشـيقة تلـبس مـن عنـد ديـور وشـانيل وسكياباريلي وهيأتها تقول أنهـا لا تنسـى أبـدا موعـدها الأسبوعي مع قاعة التجميل أو الصالون دبوتيه. كل ذلك مع كمال وحشمة وأدب وظرف وحنان أنثوي عظيم".

وأخيرا عاد الدكتور حسين إلى الوطن واستقر به المقام كرئيس تحرير.. فجاءوا له - رغم أنفه - بسكرتيرة "لهاوبة" كما ادعوا، هي مدام عفاف. ويأتي الدكتور إلى مكتبه حوالي الثامنة صباحا يكتب ويراجع..

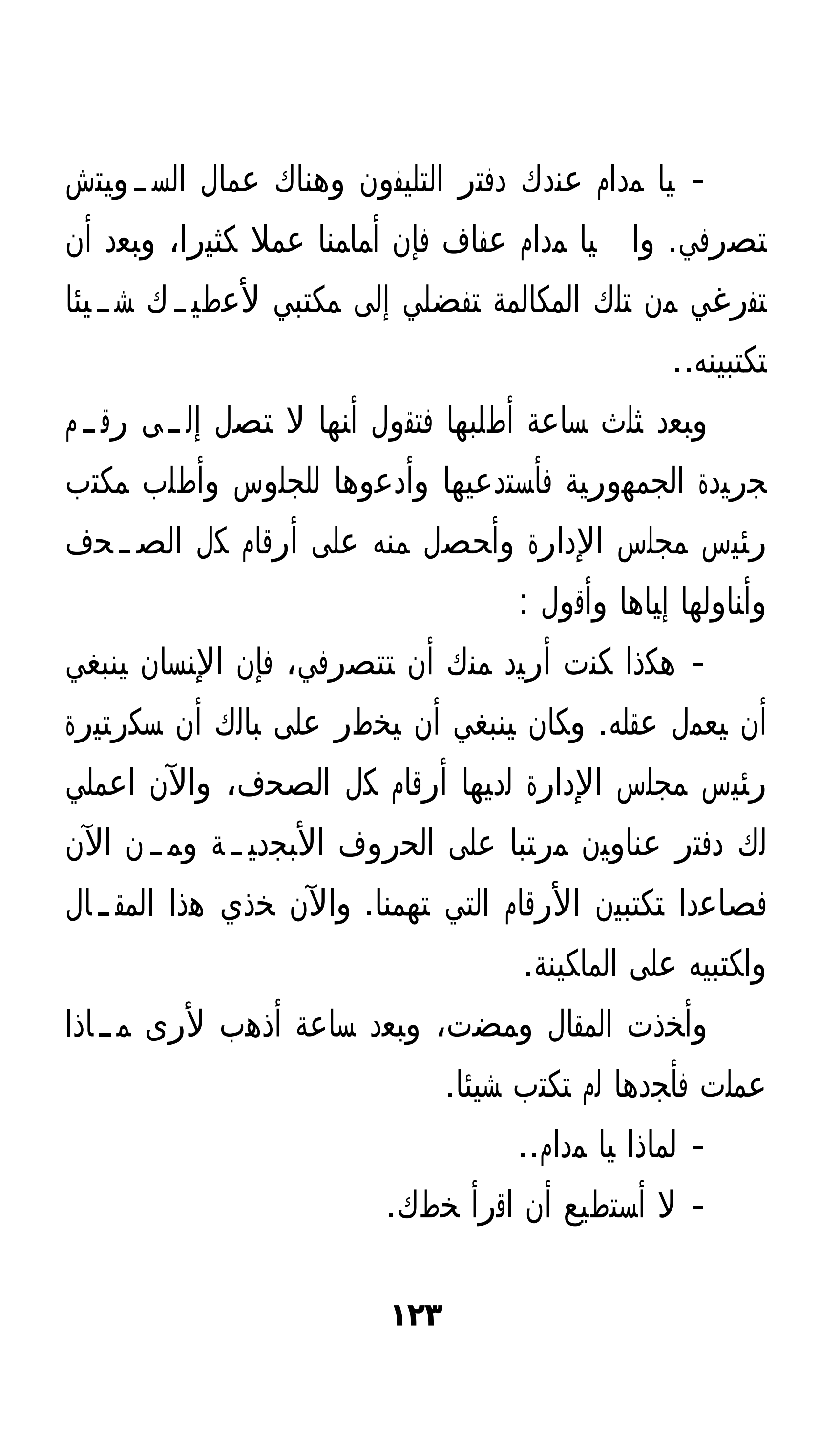
"والساعة العاشرة تصل مدام عفاف وتبدأ يومها بخناقة مع الفراش الذي لم ينظف مكتبها والصوت يترامى إلي مـن بعيد وأرفع السماعة وأقول :

- وصلت يا مدام عفاف؟

- وصلت يا دكتور وسآتيك بعد دقيقة، بعد أن أجد لـي حلا مع الفراش..

- إذن فاوصليني بالأستاذ فلان في جريدة الجمهورية.

- وما رقمه يا دكتور؟



- يا مدام عندك دفتر التليفون وهناك عمال السـويتش تصرفي. وا   يا مدام عفاف فإن أمامنا عملا كثيرا، وبعد أن تفرغي من تلك المكالمة تفضلي إلى مكتبي لأعطيـك شـيئا تكتبينه..

وبعد ثلث ساعة أطلبها فتقول أنها لا تصل إلـى رقـم جريدة الجمهورية فأستدعيها وأدعوها للجلوس وأطلب مكتب رئيس مجلس الإدارة وأحصل منه على أرقام كل الصـحف وأناولها إياها وأقول :

- هكذا كنت أريد منك أن تتصرفي، فإن الإنسان ينبغي أن يعمل عقله. وكان ينبغي أن يخطر على بالك أن سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة لديها أرقام كل الصحف، والآن اعملي لك دفتر عناوين مرتبا على الحروف الأبجديـة ومـن الآن فصاعدا تكتبين الأرقام التي تهمنا. والآن خذي هذا المقـال واكتبيه على الماكينة.

وأخذت المقال ومضت، وبعد ساعة أذهب لأرى مـاذا عملت فأجدها لم تكتب شيئا.

- لماذا يا مدام..

- لا أستطيع أن اقرأ خطك.

- ولماذا لم تقولي ذلك من ساعة. انني أعرف أن خطي عسير بعض الشيء، ولكنك إذا عرفت بعض قواعده سـهل عليك بعد ذلك. أعطني المقال لأراجعه وخذي هـذا الكتـاب وانسخي هذه الصفحة.

وتأخذ الكتاب وأنظر فإذا بأختنا تكتب بإصـبع واحـد، وتأخذ في السطر دقيقتين فأقول:

- يا مدام عفاف، ألا تكتبين سبعين كلمة في الدقيقة ؟..

هذا نص مطبوع.

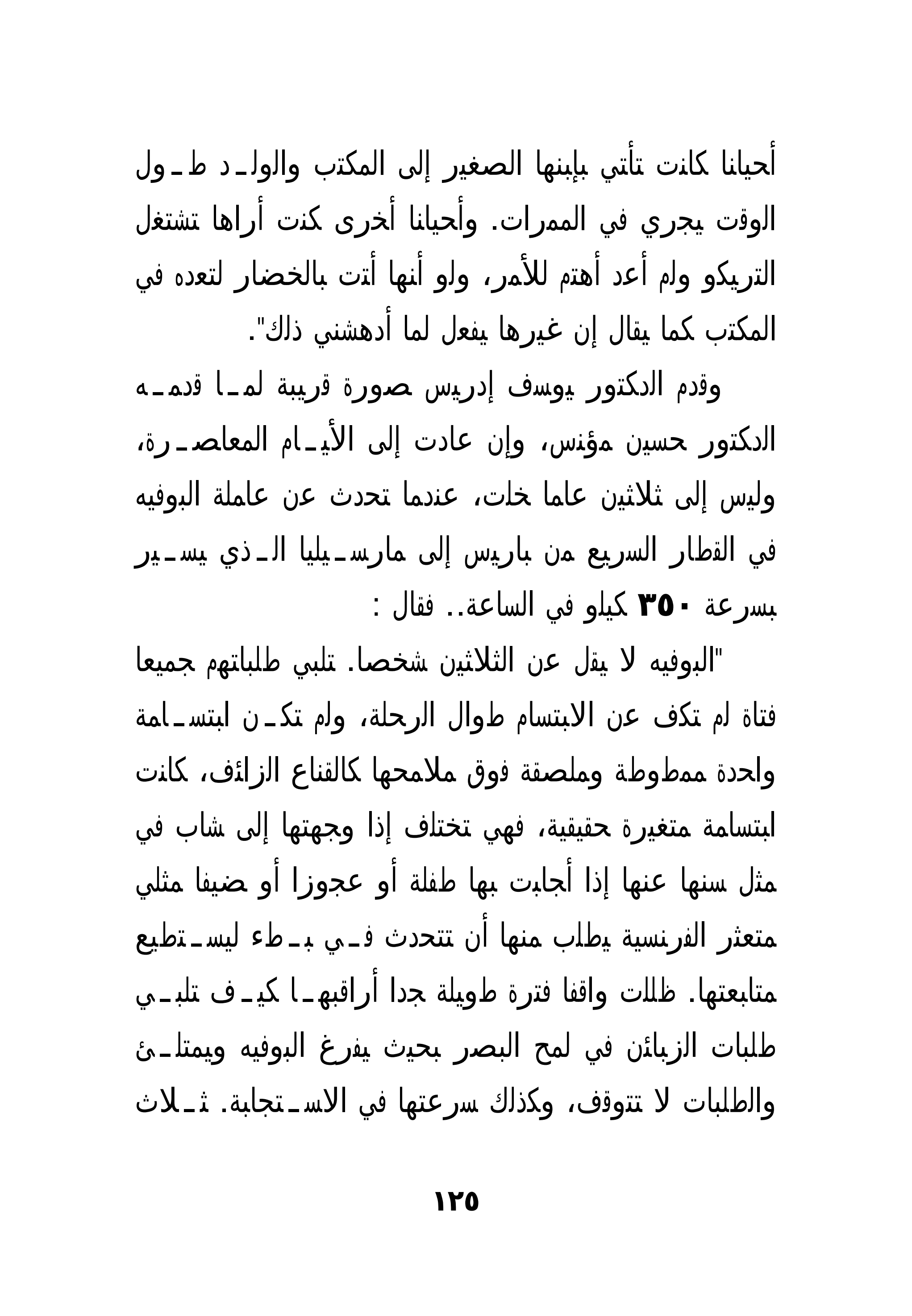
- اكتب ولكني متعبة هذه الأيام..

وأتبين أن مدام عفاف حامل. وما دامت حاملا فلا مجال لمطالبتها بأي عمل، فآخذ أوراقي وأقول لها :

- ما دام هذا هكذا فلماذا أخذت عمل السكرتارية ؟

- كل السكرتيرات هنا عملهن الوحيد هو التليفون..

وأفهمها الدكتور أن لب عمله هو كتابة المقالات علـى الآلة الكاتبة ومراجعة ردود القراء، وحاولت مدام عفـاف.. وبالفعل تحسنت "ولكنها لم تستطع أبدا أن تتحكم في وقتهـا، كانت تعيش بعقلها وكيانها في بيتها أولادها وبيتها قبل كـل شيء. وزوجها لم يكن رجلا مريحا، ولكنه محور حياتهـا.


أحيانا كانت تأتي بإبنها الصغير إلى المكتب والولـد طـول الوقت يجري في الممرات. وأحيانا أخرى كنت أراها تشتغل التريكو ولم أعد أهتم للأمر، ولو أنها أتت بالخضار لتعده في المكتب كما يقال إن غيرها يفعل لما أدهشني ذلك".

وقدم الدكتور يوسف إدريس صورة قريبة لمـا قدمـه الدكتور حسين مؤنس، وإن عادت إلى الأيـام المعاصـرة، وليس إلى ثلاثين عاما خلت، عندما تحدث عن عاملة البوفيه في القطار السريع من باريس إلى مارسـيليا الـذي يسـير بسرعة **٣٥٠** كيلو في الساعة.. فقال :

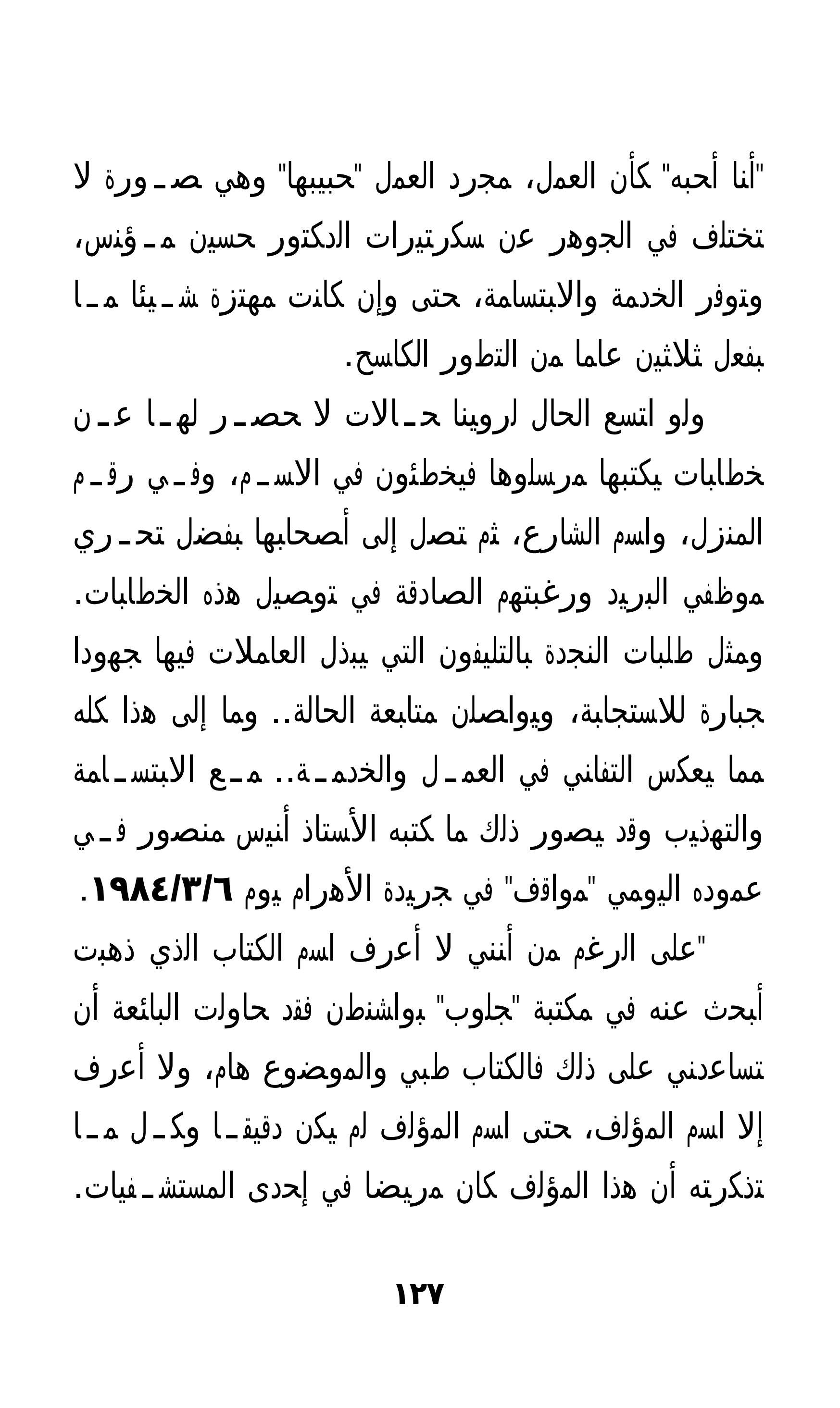
"البوفيه لا يقل عن الثلاثين شخصا. تلبي طلباتهم جميعا فتاة لم تكف عن الابتسام طوال الرحلة، ولم تكـن ابتسـامة واحدة ممطوطة وملصقة فوق ملامحها كالقناع الزائف، كانت ابتسامة متغيرة حقيقية، فهي تختلف إذا وجهتها إلى شاب في مثل سنها عنها إذا أجابت بها طفلة أو عجوزا أو ضيفا مثلي متعثر الفرنسية يطلب منها أن تتحدث فـي بـطء ليسـتطيع متابعتها. ظللت واقفا فترة طويلة جدا أراقبهـا كيـف تلبـي طلبات الزبائن في لمح البصر بحيث يفرغ البوفيه ويمتلـئ والطلبات لا تتوقف، وكذلك سرعتها في الاسـتجابة. ثـلاث

ساعات خدمت فيها ما يقرب من الثلاثمائة مسافر وابتسمت ثلاثمائة مرة، وضحكت عشرات المرات وكان واضحا تماما أنها سعيدة جدا بما تعمل. وهناك، حين أوشك البوفيه أن يفرغ، ولم يبق على مرسيليا إلا بضع عشرات من الكيلو مترات وقفت في جانب من البوفيه، وتناولت حقيبة يدها، وأخرجت علبة سجائر، تناولت واحدة منها وأشعلتها، لأول مرة منذ أن بدأنا الرحلة. راقبتها وهي تدخن أيضا. كان واضحا أنها مدخنة عويصة، وأنا مدخن أيضا ولكن لا تستطيع قوة في الوجود أن تبقيني لمدة ثلاث ساعات بلا تدخين. أكانت متعتها في العمل إذن أكبر بكثير من متعة المدخن بسيجارته."[1]

ودهش الدكتور يوسف إدريس عندما علم أن مدة خدمتها في هذا القطار "رغم الهمة الرهيبة والنشاط الباسم والسعادة الحقيقية التي ترتسم على محياها وهي تعمل" هي شهر واحد بعدها يكون عليها أن تجد عملا آخر.. وعندما سألها لماذا كنت تعملين بكل تلك الهمة والسعادة.. وأنت ستغادرين شركة القطارات السريعة بعد شهر ابتسمت وقالت

---

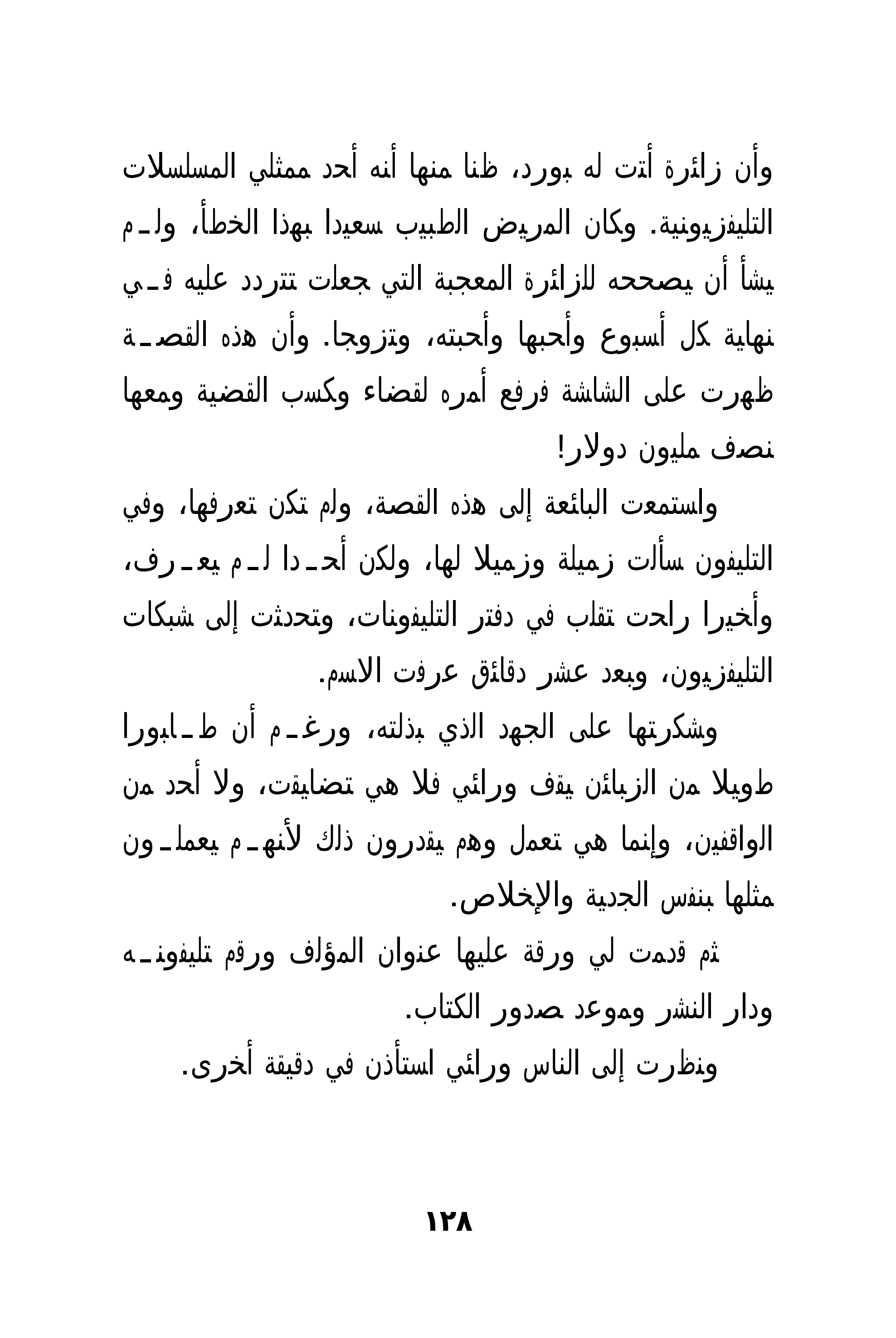
(١) الأهرام ١٩٨٤/٤/٢٤.



"أنا أحبه" كأن العمل، مجرد العمل "حبيبها" وهي صـورة لا تختلف في الجوهر عن سكرتيرات الدكتور حسين مـؤنس، وتوفر الخدمة والابتسامة، حتى وإن كانت مهتزة شـيئا مـا بفعل ثلاثين عاما من التطور الكاسح.

ولو اتسع الحال لروينا حـالات لا حصـر لهـا عـن خطابات يكتبها مرسلوها فيخطئون في الاسـم، وفـي رقـم المنزل، واسم الشارع، ثم تصل إلى أصحابها بفضل تحـري موظفي البريد ورغبتهم الصادقة في توصيل هذه الخطابات. ومثل طلبات النجدة بالتليفون التي يبذل العاملات فيها جهودا جبارة للاستجابة، ويواصلن متابعة الحالة.. وما إلى هذا كله مما يعكس التفاني في العمـل والخدمـة.. مـع الابتسـامة والتهذيب وقد يصور ذلك ما كتبه الأستاذ أنيس منصور فـي عموده اليومي "مواقف" في جريدة الأهرام يوم **١٩٨٤/٣/٦**.

"على الرغم من أنني لا أعرف اسم الكتاب الذي ذهبت أبحث عنه في مكتبة "جلوب" بواشنطن فقد حاولت البائعة أن تساعدني على ذلك فالكتاب طبي والموضوع هام، ولا أعرف إلا اسم المؤلف، حتى اسم المؤلف لم يكن دقيقـا وكـل مـا تذكرته أن هذا المؤلف كان مريضا في إحدى المستشـفيات.



وأن زائرة أتت له بورد، ظنا منها أنه أحد ممثلي المسلسلات التليفزيونية. وكان المريض الطبيب سعيدا بهذا الخطأ، ولم يشأ أن يصححه للزائرة المعجبة التي جعلت تتردد عليه في نهاية كل أسبوع وأحبها وأحبته، وتزوجا. وأن هذه القصة ظهرت على الشاشة فرفع أمره لقضاء وكسب القضية ومعها نصف مليون دولار!

واستمعت البائعة إلى هذه القصة، ولم تكن تعرفها، وفي التليفون سألت زميلة وزميلا لها، ولكن أحدا لم يعرف، وأخيرا راحت تقلب في دفتر التليفونات، وتحدثت إلى شبكات التليفزيون، وبعد عشر دقائق عرفت الاسم.

وشكرتها على الجهد الذي بذلته، ورغم أن طابورا طويلا من الزبائن يقف ورائي فلا هي تضايقت، ولا أحد من الواقفين، وإنما هي تعمل وهم يقدرون ذلك لأنهم يعملون مثلها بنفس الجدية والإخلاص.

ثم قدمت لي ورقة عليها عنوان المؤلف ورقم تليفونه ودار النشر وموعد صدور الكتاب.

ونظرت إلى الناس ورائي استأذن في دقيقة أخرى.

وسألتها : إذا كان من الممكن أن التقي بهذا المؤلف غدا أو بعد غد. فهزت رأسها، وقالت سوف أبعث إليك بعنوانه في الفندق الذي تنزل به. منتهى الإخلاص في العمل".

فإذا قارنا هذا بما عندنا، فقد يصور ما عندنا هذه الشكوى التي أرسلها قارئ إلى جريدة الأهرام ونشرتها الجريدة تحت عنوان "ربنا يهدك" !![1]

"لظروف قهرية اتصلت من السعودية برقم استعلامات تليفونات القاهرة في الرقم **٧٦٧٠٠٠** لأطلب رقم مستشفى الرمد بأمبابة للاستفسار عن صحة إنسان أنا بعيد عنه، وعندما اتصلت ردت الموظفة، طلبت منها الرقم، فقالت حاضر أصبر شوية.. ربنا يهدك! فسكت وبعد فترة أعطتني رقم **٨٠٥٨٩٢**، فشكرتها جدا واتصلت بالرقم المذكور فلم يكن رقم مستشفى الرمد، فاتصلت بالاستعلامات مرة أخرى وردت نفس الموظفة المتخصصة على ما أظن في التهريج والكلام الفاضي الذي نسمعه ونحن على الخط صابرين في انتظار رحمتها، وبعد فترة قالت خد يا سيدي الرقم **٨١٠١٩٦** فاتصلت به وللأسف لم يكن هو أيضا الرقم

(١) الأهرام رسائل القراء ١٩٨٤/٥/٩.

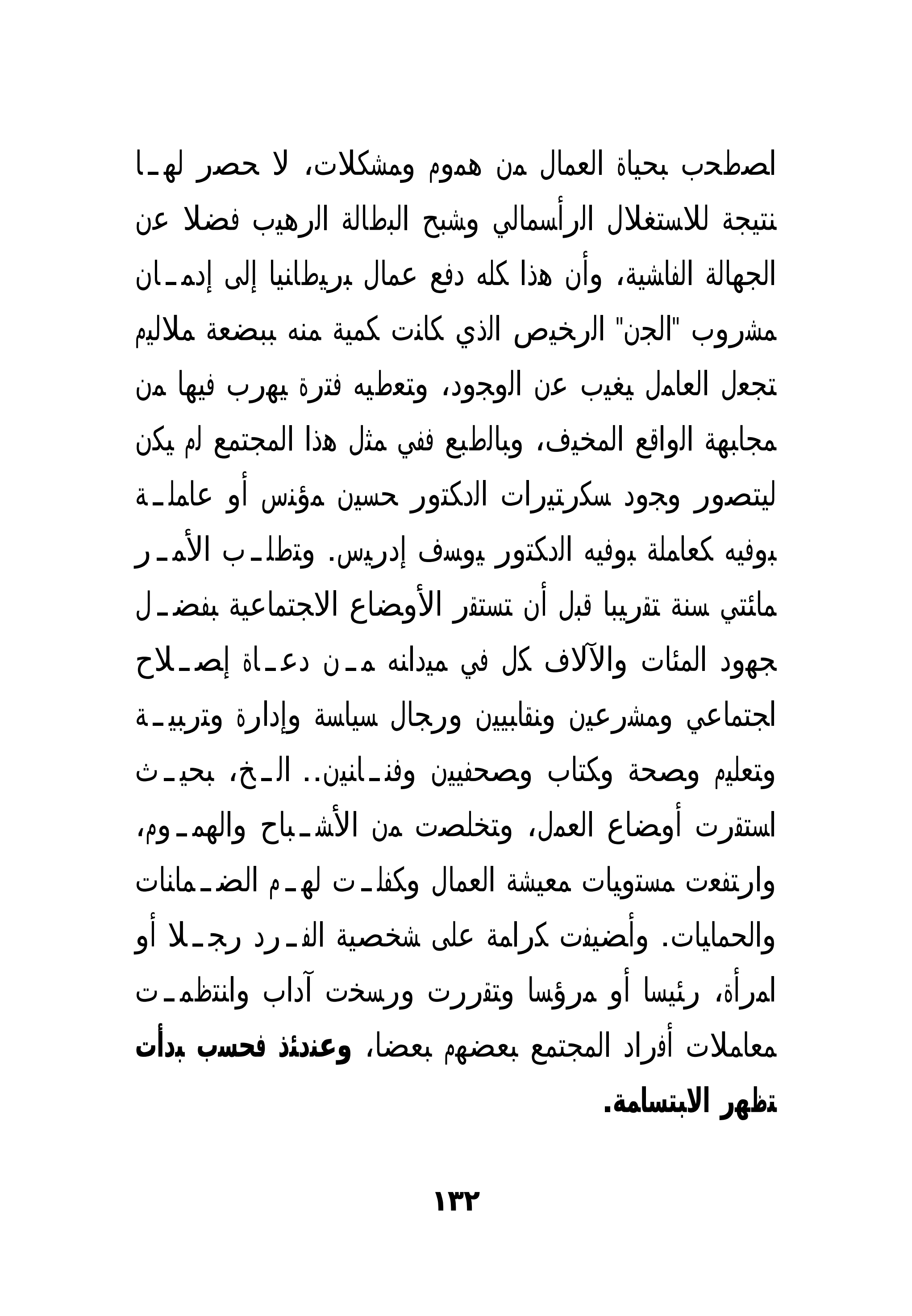
الصحيح، وكان ذلك في يوم الأحد. فاتصلت بها فـي اليـوم التالي لعل أعصابها تكون أهدأ وردت الموظفة، وقلت لهـا أرجوك أنا بأكلمك من السعودية. فأعطتني رقـم **٨١٠٢٧٠** واتصلت به فلم يكن هو أيضا الرقم الصحيح! فاتصلت يـوم الثلاثاء وكلما سمعت الصوت سمعت منه نفس الكلمات طب حاضر، ثم انتظر على الخط **٥** أو ١٠ دقائق ويقفـل الخـط مرة واثنين وثلاثا، وكأني أطلب منها لبن العصفور! فلمـاذا يستهتر البعض بالآخرين هكذا.. لقد لقيت هذه المعاناة وأنـا أطلب طلبا بسيطا هو مستشفى للسؤال عن مريض.. فهل هذا يليق !!؟

وعلق المحرر : لا .. لا يليق ولا يجـوز أن نعامـل بعضنا البعض بهذا الاستهتار المعيب ولا أعرف سـر هـذه الكلمات السوقية التي أصبحنا نسمعها من بعـض مـوظفي مصالح الخدمات ومحلات القطـاع العـام، ولا سـر هـذا الاجتراء السخيف على من يطلب حقه في الحصـول علـى خدمة عامة فيقابل بعبارات من نوع "ربنا يهدك"، إنها ظاهرة مؤسفة تحتاج إلى الردع والعقاب.

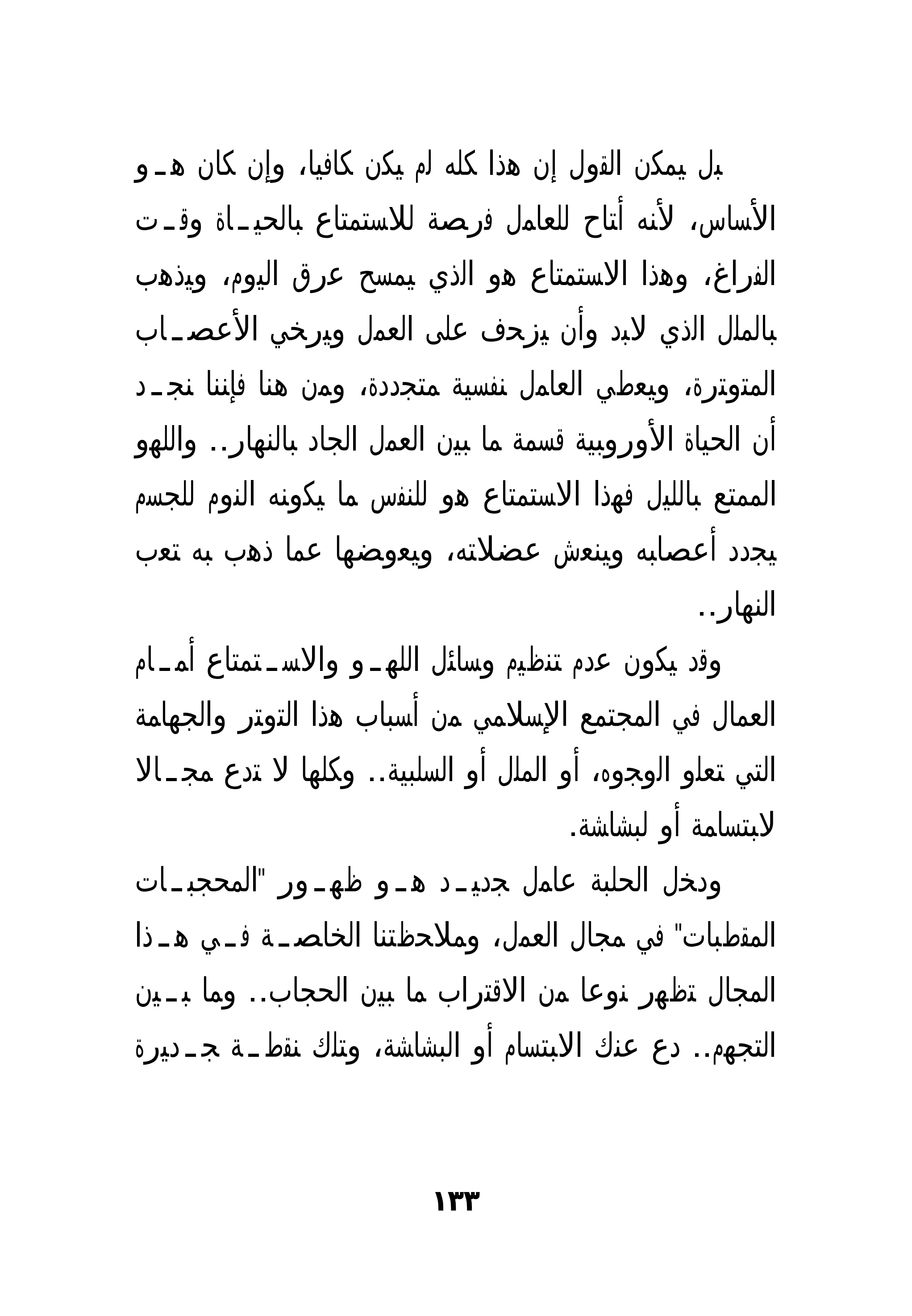
ونعتقد أن هذه النبذة تمثل تمام التمثيل الأغلبية العظمى لصورة الخدمات في المجتمع المصري، فهناك البقية الباقيـة من الرغبة في العمل والخدمة، وهذه الرغبة تصطدم بعـدم الدقة والمهارة وبالضيق النفسي وعـدم الإجمـاع والاتفـاق النهائي والمسلم به لما يجب أن يكون عليـه التهـذيب فـي المخاطبة والتعبير، وإن كان هذا لا ينفـي وجـود حـالات مختلفة، ولكن تظل الأغلبية تمثلها الحالة التي استشهدنا بها..

وقد أعاد الدكتور حسين مؤنس والدكتور يوسف إدريس سوء الخدمة عندنا إلى المجتمع الذي حطّم شخصية المـرأة، وفرض عليها وصاية ثقيلة، وأبهظ عاتق العامل بالمشـاكل والهموم والتعقيد بحيث لم يعد هناك مجال لظهور الابتسـامة وسط التل المتعالي من الهموم والمشكلات.

ولا ريب أن للمجتمع آثاره على نفسية العاملين، ومـن يقرأ تاريخ العمل يجد أن الدول الأوروبية عندما تعرّضـت لفترة الانتقال من الإنتاج اليدوي إلى الإنتـاج الآلـي، ومـا صاحب الثورة الصناعية من زعزعـة للأوضـاع القديمـة المستقرة.. يعرف كيف أن عمل العمال تلـك الفتـرة اتسـم بصورة بالغة من الفجاجـة والاسـتهتار والقصـور ومـا



اصطحب بحياة العمال من هموم ومشكلات، لا حصر لهـا نتيجة للاستغلال الرأسمالي وشبح البطالة الرهيب فضلا عن الجهالة الفاشية، وأن هذا كله دفع عمال بريطانيا إلى إدمـان مشروب "الجن" الرخيص الذي كانت كمية منه ببضعة ملاليم تجعل العامل يغيب عن الوجود، وتعطيه فترة يهرب فيها من مجابهة الواقع المخيف، وبالطبع ففي مثل هذا المجتمع لم يكن ليتصور وجود سكرتيرات الدكتور حسين مؤنس أو عاملـة بوفيه كعاملة بوفيه الدكتور يوسف إدريس. وتطلـب الأمـر مائتي سنة تقريبا قبل أن تستقر الأوضاع الاجتماعية بفضـل جهود المئات والآلاف كل في ميدانه مـن دعـاة إصـلاح اجتماعي ومشرعين ونقابيين ورجال سياسة وإدارة وتربيـة وتعليم وصحة وكتاب وصحفيين وفنـانين.. الـخ، بحيـث استقرت أوضاع العمل، وتخلصت من الأشـباح والهمـوم، وارتفعت مستويات معيشة العمال وكفلـت لهـم الضـمانات والحمايات. وأضيفت كرامة على شخصية الفـرد رجـلا أو امرأة، رئيسا أو مرؤسا وتقررت ورسخت آداب وانتظمـت معاملات أفراد المجتمع بعضهم بعضا، **وعندئذ فحسب بدأت تظهر الابتسامة.**



بل يمكن القول إن هذا كله لم يكن كافيا، وإن كان هـو الأساس، لأنه أتاح للعامل فرصة للاستمتاع بالحيـاة وقـت الفراغ، وهذا الاستمتاع هو الذي يمسح عرق اليوم، ويذهب بالملل الذي لابد وأن يزحف على العمل ويرخي الأعصـاب المتوترة، ويعطي العامل نفسية متجددة، ومن هنا فإننا نجـد أن الحياة الأوروبية قسمة ما بين العمل الجاد بالنهار.. واللهو الممتع بالليل فهذا الاستمتاع هو للنفس ما يكونه النوم للجسم يجدد أعصابه وينعش عضلاته، ويعوضها عما ذهب به تعب النهار..

وقد يكون عدم تنظيم وسائل اللهـو والاسـتمتاع أمـام العمال في المجتمع الإسلامي من أسباب هذا التوتر والجهامة التي تعلو الوجوه، أو الملل أو السلبية.. وكلها لا تدع مجـالا لابتسامة أو لبشاشة.

ودخل الحلبة عامل جديـد هـو ظهـور "المحجبـات المقطبات" في مجال العمل، وملاحظتنا الخاصـة فـي هـذا المجال تظهر نوعا من الاقتراب ما بين الحجاب.. وما بـين التجهم.. دع عنك الابتسام أو البشاشة، وتلك نقطـة جـديرة

بالعناية حتى لا يساء فهم الأمـر، أو يكـون دعايـة سـيئة للحجاب نفسه.

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن الليل يجب أن يخصص تعالى يقوم فيه العبد ويتهجد، وهذا أمر - فيما نعتقد - مما لا يكلف به عامة الناس لأنه لا يدخل في إطـار الفـرائض، وقد كان الرسول ﷺ يأخذ مصلاه من المسجد ليصـلي فـي غرفته ما يشاء من تطوع وتهجد، فعبر بذلك عن أن قرباتـه هي مما لا يكلف بها أو يقوى عليها عامة الناس وأي فـرق أذن يكون بينهم وهم "القاعدة" العريضة.. وبينه وهو القمـة التي لا مطلع وراءها.. ولا مبلغ بعدها، بل أن الرسـول ﷺ أعلنها صريحة لصاحبه "سـاعة.. وسـاعة.." وتقبـل مـن أصحابه صنوفا من اللهو بل كان يتيح لعائشـة الاسـتمتاع ببعض صور اللهو التي كانت شائعة وقتئذ.. وأخيرا فيجـب أن لا ننسى تلك الإشارة البليغة من الرسول "**.. وتبسمك في وجه أخيك صدقة**".

وبالطبع فإن عامل الاستمتاع ليس هو كل شـيء، بـل ليس هو العامل الأول، ولكن الإشارة إليه هي لعدم معالجته، والتحرج منه، وليس هناك حرج في الحـق، أمـا العوامـل

الأخرى فمنها ما يدخل في اطمئنان العامل ورضاه بما يأخذ من أجر، أو يلقي من تقدير أو يطمئن إليه في مستقبله كما يدخل فيه المهارة وتنظيم العمل.. وعوامل أخرى عديدة.

وقد لا تكون الابتسامة عاملا هاما في مجالات العمل، ولكن لا ريب أنها عامل مريح، وأنها يمكن أن تحطم جو الغربة ما بين طرفي أي عملية، وأنها خاتم يتوج العلاقات الاجتماعية بطابع النجاح والاستقرار وأنها بعد كل شيء.. صدقة.. لا تكلف شيئا.. وتنفذ إلى القلوب مباشرة.. وليس هذا بالشيء القليل.

خاتمة

العمل

الوسيلة المثلى اليوم للجهاد فِي سَبِيلِ اللَّهِ

رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب أن العمـل هـو مصداق الإيمان ومعيار الثـواب والعقـاب، وعالجنـا فـي الفصول التالية جوانب أخرى له، **ونريد أن نختم الموضـوع بإبراز حقيقة هامة تلك هي أن العمل بالمعنى الشامل للكلمة** - أي استدراك التخلف في الصناعة والتجـارة والمهـارات والعلوم والخدمات وإشاعة الثقافة والمعرفة التي هـي فـي أصل هذا، ولا غناء عنها.. **إنه الوسيلة المثلـى والوحيـدة الآن للجهاد فِي سبِيل اللهِ.**

وإبراز هذه الحقيقة له أهمية مضاعفة، فبالإضافة إلـى أهميتها الموضوعية، فهناك أهمية أخـرى نشـأت عـن أن الصورة التي تستأثر بالشباب الإسـلامي وتسـتحوذ علـى نفوسهم اليوم هي صورة الجهاد العسكري.. الذي يقـوم بـه

جيش كجيش الفتح الإسلامي الأول يحمل دعوة لا إله إلا ا محمد رسول ا إلى الناس كافة، فمن استجاب فهم أخوة "لهم ما لنا، وعليهم ما علينا" وإن رفضوا فالجزية يدفعونها عن يد وهم صاغرون. وإن رفضوا فالقتال الذي يظفر فيه المسلمون بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة.

نقول إن هذه الصورة من الجهاد ليست هـي الصـورة الوحيدة، وليست هي الصورة المثلى.

ذلك لأن كلمة الجهاد أعم من كلمة القتال، فكـل قتـال يمكن أن يكون جهادا، ولكن ليس كل جهاد يمكن أن يكـون قتالا. لأن اللفظة تعني المجاهدة مطلقا، سواء كـان ذلـك بالنفس أو بالمال أو بالعمل أو بالسلاح أو بغير ذلـك مـن الوسائل والأساليب.

من هنا قال النبي ﷺ للرجل الذي جاءه يسـتأذنه فـي الجهاد "أحي والداك" قال نعم قال "**ففيهما فجاهد**" ورد الرجل الآخر الذي قال له "جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبـوي يبكيان" وقال له "**ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**" وقال "**أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر**" وجمـع بين حمزة – سيد الشهداء، ومثل هذا الرجل كما جمـع فـي

الشهادة بين من قتل في سبيل ا وبين من مات في سبيل ا ، وتحدث عن "**جهاد لا قتال فيه**". وقال عمر لرجل ترك عمله الذي يرتزق منه وسافر إلى المدينة للجهاد "**ارجع فإن عملا بالحق جهاد حسن**"، وروي أنه بعث شعبان بن مالك ساعيا بالبصرة فمكث حينا ثم استأذنه في الجهاد، فقال عمر "**أولست في جهاد..**"

وهذا الفهم من الرسول ﷺ ومن عمر له أساسه من القرآن، فالقرآن يشير إلى **الجهاد** بما يوحي **المجاهدة** عامة ما دامت ِفي سِبِيل اللهِ، وفي معظم الحالات اقترن الجهاد بالمال، وقد يقدم القرآن ذلك على الجهاد بالنفس ..وجاهِدوا بِأَمْوالِكُمْ وأَنفُسِكُمْ و إن الذِين آمنُوا وهاجروا وجاهدوا بِأَمْوالِهِمْ وأَنفُسِهِمْ ِفي سِبِيل اللهِ و لَكِنْ الرسولُ والذِين آمنُوا معه جاهدوا بِأَمْوالِهِمْ وأَنفُسِهِمْ الخ...

فكلمة جهاد تعني المجاهدة، أي بذل الجهد واستنفاد الطاقة في أي عمل صالح سواء كان إعالة أسرة أو ممارسة مهنة أو إنفاق للمال في وجوه مشروعة أو اتخاذ موقف من أبوين يريدان حمل ابنهما على الشرك أو حاكم يريد فرض

الظلم على الناس أو غير ذلك من مواقف الكفاح بما في ذلك موقف العاشق المتعفف :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وأي جهاد غيرهن أريد

فهذا العمل.. والإنفاق والتورع من الوقوع فـي المـآثم جهاد وما دام يراد به وجه ا فإنه ِفي سِبِيل اللهِ .

ومن هنا فإن العمل المحكوم بالإسلام هو في حقيقـة الحال جهاد ِفي سِبِيل اللهِ..

ولما كانت كلمة جهاد تعني - كما أشرنا - بذل الجهد - فإن العمل الذي ينطبق عليه وصف الجهاد يجب أن يكـون عملا متقنا يستنفد من صاحبه جهده ويستفرغ منه طاقتـه.. وليس العمل الرث أو الملفق.

وهذا العمل.. هذا الجهاد ِفي سِبِيل اللهِ هو المطلـوب الآن بصورة أساسية، وهو - وليس القتـال العسـكري - سبيل الإنقاذ.[1]

---

(١) إن استبعادنا للقتال كسبيل للدعوة الإسلامية، لا يعني بالطبع استبعاد القتال دفاعا عن حرية العقيدة، كما كان أيام الرسول "وحتى لا تكون فتنة" ولا دفاعاً عن البلاد إذا هوجمت، أو دفعا عن استقلالها إذا كانت محتلة، فهـذا القتـال فرض مقدس وواجب على كل رجل وامرأة، وفي جميع الحالات فلابد من أن

لماذا...

لأكثر من سبب. وبداية، فإذا أراد دعاة القتال والغـزو أن يكفلوا لأنفسهم النصر، ولبلادهم المنعة فعليهم أن يركزوا اهتماماتهم في إحكام الصناعة، وإتقان المهارات والتغلغل في أسرار العلم الحديث .. باختصار"العمل"، لأن هذا هـو سـرّ التفوّق العسكري. إلاّ أن انتصار البلدان الفقيرة علـى وجـه التحديد، إنما يحقّقه في المقام الأول الجهاد داخل المجتمـع. والصورة في هذا العصر للجهاد الداخلي تأخذ شكل التنظـيم المنهجي في مجالات العمل العـام. **إن الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر الذي قدمه** القرآن **في بعض الآيات حتى على الإيمان با وإقامة الصلاة الخ.. إنمـا يتجلّـى فـي الهيآت والجمعيات التي يكونها المواطنون بدافع من إيمانهم لخدمة مجتمعهم في كل المجالات.** إن المجتمع الذي يمارس مسؤولياته في جميع ميادين الحياة، بحرية وبكرامة، يكون قد أعدّ القاعدة التي يصعب قهرها.

سبب آخر لاستبعاد تلك الصورة الضيقة والخاصة مـن الجهاد - أي القتال - هي أن **القتال حتى عنـد الانتصـار لا**

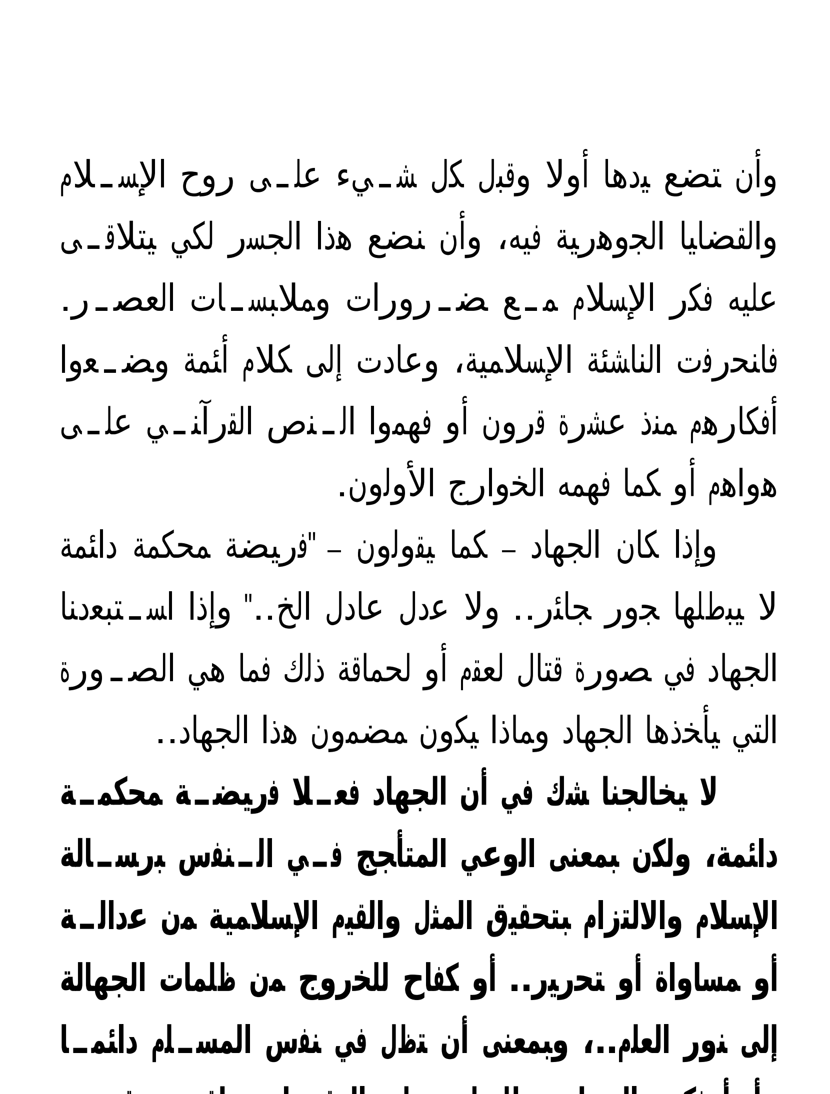
يكون لكل بلادها جيشها، بل أن يكون أهلها كلهم على جانب كبير من التدريب العسكري ما دمنا نعيش في عصر "الغابة" الأوروبية.

يمكن أن يكفل الإيمان أو يكسب القلوب أو يجعل النفـوس تتعاطف وتتجاوب مع العقيدة. فهل نحارب لكي نحصل على إسلام إجباري أو مظهري أو نضم ناسا يقولون بأفواهم مـا ليس في قلوبهم ؟ وما قيمة هذا كله ؟ لقد كان للقتال ضرورة في العصر القديم لأن وسائل الإعلام والاتصال الجمـاهيري لم تكن متاحة ولم يتجاوب كسرى وقيصر مع الرسائل التـي أرسلها النبي ﷺ لهما، وحمّلهمـا فيهـا مسـئولية ضـلال جماهيرهما.. فلم يكن بدّ من أن يظهر الجـيش الإسـلامي بقضه وقضيضه، فالجهاد الإسلامي كان في حقيقـة الحـال الوسيلة التي اقتضتها الظروف وقتئذ لتوصيل الدعوة، كـان الجيش الإسلامي في حقيقته جيشا من نوع جديـد لـم يكـن للبشرية به عهد من قبل، كان جيش دعاة قبل أن يكون جيش محاربين – جيش يحمل **الْكِتَاب و الْمِيزان** أكثـر ممـا يحمل السيف والسنان، ولو كان الغرض هو مجرّد القتال، لما كان هناك داع للدعوة إلى الإسلام، وما يعنيه هذا مـن فقـد المغانم والسيادة على الأرض. وهذه الدعوة إلى الإسلام مـا كان يمكن أن تأخذ شكلها المباشر إلا بتحرك الجيش ودعوته الجماهير البعيدة عن موطن الدعوة الإسلامية. ولكن وسـائل

الإعلام والاتصال اليوم مكفولة، ويمكن أن تصل الجماهير في عقر دارها عن طريق الإذاعة والصحافة، وحتى لو كانوا في آخر الدنيا. فلماذا لا يدخر دعاة القتال جهدهم للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبدأون بها ما دامت الدعوة مقدمة على القتال نفسه، ولا قتال قبل الدعوة إلى الإسلام. إن هذا على الأقل سيكسب للإسلام الألوف، أو حتى مئات الألوف الذين يسلمون إيمانا واحتسابا واقتناعا، ولأن يهدي ا بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها..

سبب ثالث : هل من المعقول أن نحاول حمل دعوة الإسلام إلى بلاد بعيدة وجماهير جديدة.. وأن ندع - في الوقت نفسه جماهيرنا وشعوبنا تتخبط في ظلمات الجهالة والفهم السقيم للإسلام ؟ أفليس الأولى أن نبدأ بأنفسنا وأن نصلح مجتمعنا.. وهو عمل لا يريد حربا ولا قتالا.. ولكن تعليما وتفهما..

لقد كنا في غنى عن تقديم هذه المبررات، بل ومعالجة تلك النقطة بأسرها - نقطة القتال، لولا أن معظم قيادات الدعوات عجزت عن أن تقدم للشباب الصورة السليمة للجهاد، وأن تترجم لها النصوص القديمة إلى لغة العصر.



وأن تضع يدها أولا وقبل كل شـيء علـى روح الإسـلام والقضايا الجوهرية فيه، وأن نضع هذا الجسر لكي يتلاقـى عليه فكر الإسلام مـع ضـرورات وملابسـات العصـر. فانحرفت الناشئة الإسلامية، وعادت إلى كلام أئمة وضـعوا أفكارهم منذ عشرة قرون أو فهموا الـنص القرآنـي علـى هواهم أو كما فهمه الخوارج الأولون.

وإذا كان الجهاد - كما يقولون - "فريضة محكمة دائمة لا يبطلها جور جائر.. ولا عدل عادل الخ.." وإذا اسـتبعدنا الجهاد في صورة قتال لعقم أو لحماقة ذلك فما هي الصـورة التي يأخذها الجهاد وماذا يكون مضمون هذا الجهاد..

لا يخالجنا شك في أن الجهاد فعـلا فريضـة محكمـة دائمة، ولكن بمعنى الوعي المتأجج فـي الـنفس برسـالة الإسلام والالتزام بتحقيق المثل والقيم الإسلامية من عدالـة أو مساواة أو تحرير.. أو كفاح للخروج من ظلمات الجهالة إلى نور العلم..، وبمعنى أن تظل في نفس المسـلم دائمـا وأبدأ فكرة المجاهدة للتغلب على العقبـات ولقهـر قـوى القصور والنقص واستنفاد الجهد للوصول إلـى الكمـال.. وتحقيق العزة والكرامة.

وإذا كانت مشكلة المجتمع الإسلامي اليوم، التي تفرض عليه الذلة والمهانة والتبعية، وتوقفـه موقـف المسـتجدي، وتجعله فقيرا ضعيفا معوزا فـي عصـر الثـروة والـوفرة والقوة.. إذا كانت هذه المشكلة هي – بعد جهله لحقيقة دينـه وجوهر إسلامه، هى التخاف في الصناعة والمهن والخدمات والزراعة والتجارة.. والتخاف في الأداء وما يستوجبه مـن مهارات وإتقان وإخلاص... أفلا يكون العمل لاستدراك هذا كله جهادا فِي سبِيل اللهِ..؟

وفي التعبيرات المعاصرة يشيع استخدام تعبير "الثـورة" كوسيلة للانتهاض والقضاء بأسـلوب حاسـم علـى هـذه التراكمات والتعقيدات والإرث الثقيل. ويعـزف كثيـر مـن المفكرين الإسلاميين عن تعبير "ثـورة" لمـا تثيـره مـن متداعيات بعيدة عن الإسلام فضلا عن الابتذال الشديد للكلمة. وفي التعبيرات الإسلامية البديل الأفضـل والأمثـل مبنـي ومعني.. الا وهو الجهاد.. لأن الجهاد الإسلامي بقـدر مـا يخلص من المتداعيات الكريهة لكلمة "ثورة" التي جاءت بهـا الممارسات الوحشـية للثـورات الأوروبيـة (الفرنسـية – الشيوعية الخ..) والعسكرية في الدول العربية بقدر ما يقـدّم

أفضل ما في مضمون الثورة، ولم يكن تروتسكي ليجد لثورته الدائمة ما يداني – فضلا عن أن يساوي – الجهاد الإسلامي..

وهكذا نصل إلى المضمون الجديد، والحقيقي للجهاد الإسلامي اليوم. إنه العمل – بكل كرامة وقوة ومجاهدة وإصرار لإخراج المجتمع الإسلامي من الظلمات إلى النور بإشاعة العلم والمعرفة والتدريب على المهارات.. وتحقيق خطط التنمية (عندما تكون سليمة) وجعل كلمة ا – العدل – أو الحقّ – هي العليا..

بذلك تنطلق **مسيرة الجهاد الإسلامي** اليوم كما انطلقت في عهد أبي بكر وعمر.. **تحمل الكتاب والميزان.. فتنشر العلم والمعرفة وما يستتبعه هذا أو يقوم عليه من صناعة وزراعة وتجارة ومهارة وخدمات وتوزع ثمرة هذا كله "بالعدل". وهذان هما الحسنيان في العمل الإسلامي : الوفرة.. والعدالة.. فالوفرة بدون عدالة تُظْهِر الترف والعدالة دون الوفرة تشيع الفاقة، ولكن الجهاد الإسلامي في صورة العمل.. يمكن أن يحقق الوفرة والعدالة.**

وليس هناك من قربى إلى ا .. أفضل من هذا..

شيء أخير نقوله للهيئات والجماعـات الإسـلامية. إن ربط الجهاد بالعمل هو وحده الذي سيمكن الدعوة الإسـلامية في الأرض وسيحول دون أن تكـون - كمـا تقـول عنهـا الصحف "التيار الديني" الذي يمكن أن يستغل أو يستقطب أو يتبدد أو ينسى كما لو كان من مثاليات المراهقة أو حركـات الطلبة العابرة.. أو انبعاثات المتطـرفين. **إن ربـط الجهـاد بالعمل سيعمق جذور الدعوة الإسلامية في المجتمع بحيث لا يمكن عزلها أو استقطابها، فضلا عـن القضـاء عليهـا، وسيعطيها شكلها "العملي" بحيث يعسـر معـه الانحـراف والسير مع الأهواء والنزوات الطارئة..**

فهرس